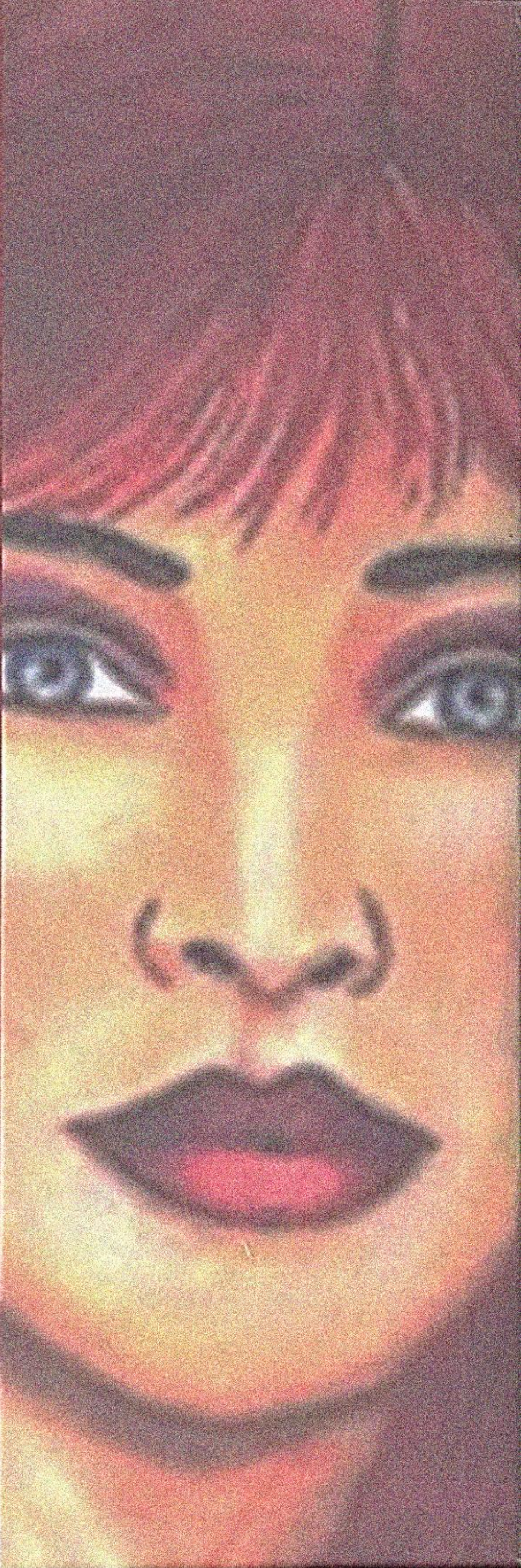
رواية

آميلي نوثومب

زئبق

ترجمة: ناديا صبري



المركز الثقافي العربي

آميلي نوثومب

زئبــق

روايــة

ترجمة: ناديا عمر صبري

آميلي نوثومب

زئبـق

العنوان الأصلي للرواية:
Amélie Nothomb
Mercure
© Édtions Albin Michel, 1998

الكتاب
زئبق
تأليف
آميلي نوثومب
ترجمة
ناديا عمر صبري
الطبعة
الأولى، 2007
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-259-3

الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 2303339 ـ 2307651
فاكس: 2305726 ـ 2 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01750507 ـ 01352826
فاكس: 01343701 ـ 961+
www.ccaedition.com
Email: cca@ccaedition.com

مذكرات هازيل

لكي يختار المرء سكنى هذه الجزيرة، لا بد أن يكون لديه ما يخفيه. فأنا واثقة من أن العجوز يخفي سراً. لا أدري ما هو، لكنّ تصرّفاته الحذرة المتحوِّطة تؤكد لي أنه أمر خطير.

تغادر سفينة صغيرة ميناء «نو» مرة في اليوم قاصدة مورت فرونتيير حيث يترقب رجال العجوز على رصيف الميناء لتفتيش المؤن والبريد. المسكينة جاكلين، هي التي روت لي كل ذلك بسخط متكتم. إذ ما الداعي للاشتباه بها هي المنصرفة إلى خدمة العجوز منذ ثلاثين سنة؟ آهِ لو أعرف.

ركبت هذه السفينة مرة واحدة قبل خمس سنوات. في رحلة ذهاب، ويساورني الشك أحياناً بأنّه ما من رحلة عودة على الإطلاق.

عندما أهمس لنفسي أناديه بالعجوز دوماً، وهذا ليس

عدلاً، فالشيخوخة أبعد من أن تكون ميزة عمير لونكور الرئيسة، فالقبطان من أكثر الرجال الذين صادفتهم كرماً. أدين له بكل شيء، بدءاً ببقائي على قيد الحياة. ورغم ذلك عندما يتكلم صوتي الحميم والحر في داخلي أسميه «العجوز».

ثمة سؤال غالباً ما يراودني دون التوصل إلى إجابة عنه، ألم يكن من الأفضل أن أموت قبل خمس سنوات في ذلك الانفجار الذي شوّهني؟ أحياناً لا أستطيع أن أمنع نفسي من قول ذلك للعجوز: «لماذا لم تدعني أموت أيها القبطان؟ لماذا أنقذتني؟» وفي كل مرة يغضب مني:

- عندما نجد الفرصة لتفادي الموت فمن الواجب أن نعيش!

- لماذا؟

- من أجل الأحياء الذين كانوا يحبونك.

- الذين كانوا يحبونني قضوا في الانفجار.

- وأنا؟ أنا أحببتك كأب منذ اليوم الأول. أنت ابنتي منذ خمس سنوات.

لم أجد جواباً لحيرتي، هناك صوت داخل رأسي يصرخ: «إذا كنت أبي فكيف تجرؤ على مضاجعتي؟ ثم إن سنك تؤهلك لأن تكون جدي أكثر من أن تكون أبي».

لن أجرؤ على أن أقول له شيئاً كهذا أبداً. أشعر بأنني ممزقة إلى نصفين اتجاهه: هناك جزء يحب ويحترم ويعجب بالقبطان، وجزء خفيّ يشمئزّ من العجوز، وغير قادر على التعبير عن نفسه علانية.

البارحة كان عيد ميلاده. لا أعتقد أن شخصاً كان في مثل سعادته عند بلوغه السابعة والسبعين.

قال: «سنة 1923 سنة مميزة، الأول من مارس أبلغ 77 سنة، وفي 31 مارس تبلغين 23 سنة. شهر مارس 1923 عجيب إذ يجعلنا معاً نكمل قرناً».

هذه المئوية المشتركة التي تبهجه هي في الأغلب باعث كَدَري. وتصديقاً لمخاوفي، جاء البارحة ليشاركني الفراش: تلك طريقته للاحتفال بعيد ميلاده. أتمنى أن يبلغ مئة عام، ولا أتمنى أن يموت، بل أن يصبح غير قادر على النوم معي.

ما يفقدني عقلي هو أنه يحس بالإثارة نحوي. أي وحش هذا الذي يشتهي فتاة ذات وجه يفتقد كل ما هو بشري؟ لو يطفئ النور على الأقل. على العكس يسلط عليَّ نظره وهو يلمسني.

- «كيف يمكن أن تنظر إليّ هكذا؟» قلت له تلك الليلة.
- لا أرى إلا روحك، وهي جميلة جداً.

يفقدني هذا الجواب صوابي. يكذب. أنا أعرف كم هي قبيحة روحي فأنا التي أحس بهذا الكم من التقزز تجاه وليّ نعمتي. لو أن روحي تظهر على وجهي لكنتُ منفرة أكثر. في الحقيقة، العجوز منحرف فاسق: دمامتي هي التي تثير فيه شهوةً جامحةً نحوي.

ها قد أصبح صوتي الداخلي من جديد شرساً. كم أنا ظالمة! عندما آواني القبطان منذ خمس سنين، من المؤكد أنه لم يكن يعتقد أن ينتهي به الأمر إلى اشتهائي، كنت حطاماً من بين آلاف ضحايا الحرب الذين يموتون كالذباب. قُتل والداي ولم يكن لدي شيء ولا أحد، كانت معجزة أن آواني تحت حمايته.

عيد ميلادي بعد عشرين يوماً. أتمنى لو أنه قد مر. دفعني العجوز السنة المنصرمة في المناسبة نفسها إلى شرب الكثير من الشمبانيا. استيقظت في اليوم التالي عارية على جلد فيل البحر الذي يستعمل كغطاء سرير، دون أية ذكرى لتلك الليلة. عدم التذكر هو الأسوأ. وماذا سيحدث لي في هذا الاحتفال المنفّر لمئويتنا؟

لا ينبغي التفكير في هذا الأمر الذي يصيبني بالسقم. أحس كأنني سأتقيأ مرة أخرى.

في 2 مارس 1923، أرسلت مديرة مستشفى «نو» في طلب فرانسواز شافين، أفضل ممرضاتها.

- لا أدري بماذا أنصحك، فرانسواز، هذا القبطان عجوز مهووس. إذا ذهبت لمعالجته في مورت فرونتيير فسيدفع لك لقاء أتعابك ما يفوق توقعاتك، لكن يجب عليك قبول شروطه: عند النزول من السفينة سيتم تفتيشك وتفتيش محفظتك. ويبدو أن تعليمات أخرى تنتظرك هناك. سأتفهّم رفضك. من جهة أخرى لا أعتقد أن القبطان يشكل خطراً.

- أوافق.

- هل أنت مستعدة للذهاب وبدء العمل من بعد ظهر اليوم؟ يبدو أن الأمر مستعجل.

- سأذهب.

- هل هو الإغراء المادي الذي يدفعك للذهاب دون تفكير؟

- شيء من هذا القبيل. خاصة معرفة أن شخصاً ما يحتاج إليّ في تلك الجزيرة.

على متن السفينة جاكلين حذرت فرانسواز:

- سيتم تفتيشك يا صغيرتي. ومن طرف رجال.

- سيّان عندي.

- أستغرب ذلك. أما أنا فيقومون بتفتيشي منذ ثلاثين سنة. من المفروض أن أتعود على الأمر، لكنه يظل مزعجاً بالقدر نفسه. أما أنت فإنك صغيرة وجميلة يرضيك ما يمكن أن يفعله هؤلاء القذرون الداعرون لك....

- «أقول لك سيان عندي»، قاطعتها الممرضة.

ذهبت جاكلين لتفقّد متاعها وهي تتأفف في حين ظلت الشابة تنظر إلى الجزيرة التي لا تني تقترب. أخذت تتساءل ما إذا كان السكن في وحدة كهذه يشكل حرية مميزة أم سجناً من دون أمل.

على رصيف ميناء مورت فرونتيير فتشها أربعة رجال ببرودة لا تعادلها إلا برودتها، مما سبب خيبة كبيرة للخادمة العجوز التي ظلت تتذمر من الأيدي العابثة. بعد التفتيش

جمعت فرانسواز حقيبتها المخصصة للإسعافات، وجمعت جاكلين خضارها.

تمشّتا إلى أن بلغتا القصر الريفي.

- يا له من بيت جميل، قالت الممرضة.
- لن تبقي على هذا الاعتقاد طويلاً.

قام كبير خدم، غير محدد السن بمرافقة الشابة عبر عدة غرف مظلمة. وأشار إلى باب شارحاً: «هنا» ثم ارتد على عقبيه. طرقت الباب وانتظرت: «أدخلي». دلفت إلى ما يشبه حجرة تدخين. أشار سيد عجوز إلى مقعد حيث جلست. تطلَّب الأمر منها بعض الوقت لتتعود على الضوء الخافت ولترى وجه مضيفها المجعد. أما هو، فعلى العكس، لقد ميَّز وجهها مباشرة.

- آنسة فرانسواز شافين أليس كذلك؟ سأل بصوته الهادئ اللبق.
- أجل.
- أشكرك على مجيئك بهذه السرعة. لن تندمي على ذلك.

- يبدو أن تعليمات أخرى تنتظرني هنا قبل معالجتك.

- هذا صحيح. لكن في الواقع، لم تأتي من أجلي. إذا لم يكن هناك مانع أفضّل المباشرة بالتوجيهات أو الأحرى بالتوجيه لأنه ليس هناك إلا واحد منها وهو عدم طرح أسئلة.

- ليس من عادتي أن أفعل ذلك.

- أظن ذلك. فشكلك يدل على حكمة واسعة. إذا طرحت سؤالاً مفاجئاً غير ضروري فلن تري «نو» أبداً. هل تفهمين؟

- أجل.

- أنت لست عاطفية. هذا جيد. ليس هذا حال التي ستعالجينها، رَبِيبَتي، هازيل، فتاة شابة كفِلتها قبل خمس سنوات بعد الانفجار الذي أودى بحياة بأهلها. لقد لحق بها أذى كبير. وإذا كانت اليوم قد استرجعت قسطاً وافراً من صحتها الجسدية فإن صحتها العقلية ظلت غير مستقرة، فهي، إلى حد، تعاني دون توقف من آلام جسدية ونفسية. في صبيحة ألفيتها عرضةً لتشنجات. كانت ترتعد بعد أن تقيأت.

- سؤال عملي: هل أكلت طعاماً معيناً؟

- أكلت ما أكلتُ أنا. وها أنا أتمتع بصحة جيدة. سمك طازج، حساء. . . . . يجب الإشارة إلى أنها بالكاد تأكل. يقلقني كثيراً رؤيتها تتقيأ مع أنها هزيلة جداً، هي في الثالثة والعشرين تقريباً وبنيتها أشبه ببنية فتاة مراهقة.

- حذار أن تكلميها عن الانفجار وعن موت والديها، أو أي شيء يمكن أن يعيد إليها تلك الذكريات المرعبة. لا يمكن أن تتخيلي كم أعصابها ضعيفة.

- حسناً.

- هناك شيء آخر، يجب عدم انتقاد شكلها بتاتاً مهما كان مثيرا للانتباه، فهي لا تحتمل ذلك.

تسلّقت فرانسواز مع الرجل العجوز السلم الذي كانت درجاته تئن تحت كل خطوة. في آخر الممر دخلا غرفة ساكنة. كان السرير الخالي غير مرتب.

- أقدم لك هازيل، قال رب البيت.

- أين هي؟ سألت الشابة.

- أمامك في السرير. تختبئ تحت الأغطية كالعادة.

تصورت القادمة الجديدة أن المريضة فعلاً هزيلة ذلك لأن وجودها تحت العطاء كان يدفع للشك.

كان من الغرابة رؤية العجوز يتوجه بالحديث إلى سرير خال.

- هازيل أقدم لك الآنسة شافين، أفضل ممرضة في مستشفى. كوني لطيفة معها.

- لم تبدِ الأغطية أي رد فعل.

- حسناً، أعتقد أنها تمثل علينا دور المفزوعة. سأتركك يا آنستي مع ربيبتي حتى يمكنك التعرف عليها. لا تخافي. فهي مسالمة. وافيني إلى حجرة التدخين عندما تفرغين.

غادر القبطان الغرفة، تنامى إلى السمع صرير السلم من وطء قدميه. لمّا خيّم السكون مجدّداً، اقتربت فرانسواز من السرير ومدت يدها لرفع لحاف الريش ثم أحجمت في اللحظة الأخيرة.

- عفواً، هل يمكنني أن أطلب منك الخروج من تحت الأغطية؟ قالت بصوت حيادي، مفضلة التعامل مع تلك التي قيل لها إنها مريضة كإنسانة طبيعية.

لم يصدر أي جواب، بالكاد ارتعاشات تحت الغطاء، لكن بعد ثوان ظهر رأس.

كان الرجل العجوز في حجرة التدخين يشرب الكلفدوس (شراب مسكر مصنوع من عصير التفاح) الذي يلهب الحنجرة. لماذا يصبح تقديم الخير لشخص ما دون إيذائه شيئاً مستحيلاً؟ لماذا من المستحيل أن نحب شخصاً دون تدميره؟ عسى ألاّ تفهم الممرضة. . . . أتمنى ألاّ أضطر لإقصاء الآنسة شافين، تبدو لي جيدة جداً.

عندما اكتشفت فرانسواز وجه الفتاة الشابة أحست بصدمة عنيفة جداً، ولأنها مخلصة للتعليمات التي تلقتها، لم تدع شيئاً يبدو عليها.

- أهلاً، اسمي فرانسواز.

خرج الوجه من تحت الأغطية وهو يرمقها بفضول مُفزع.

وجدت الممرضة بعض الصعوبة في التظاهر بأنها لامبالية. وضعت يدها على جبهة المريضة، كانت ملتهبة.

- بمَ تشعرين؟ باشرت بالسؤال.

جاوبها صوت ندي كنبع:

- أشعر بفرحة لا يمكنك تخيلها. من النادر جداً أن ألتقي شخصاً هنا، أرى دوماً الوجوه نفسها، هذا وإن كنت بالكاد أراها.

لم تتوقع المرأة الشابة هذا النوع من الحديث.

حائرة تابعت حديثها:

- لا، أنا أود القول كيف تحسّين من الناحية الجسدية؟ أتيت لعلاجك. يبدو أن حرارتك مرتفعة.

- أعتقد نعم وأحب ذلك. في الصباح، كنت متوعكة، متوعكة جداً. كنت أعاني من دوار وأرتجف وأتقيأ، الآن، لا

أحس إلا بالجوانب الجيدة للحمّى: خيالات تحررني.

همّت فرانسواز بأن تسأل: «تحررك من ماذا؟» ثمّ تذكرت أنها ملتزمة بالأسئلة الضرورية: ربما يراقبوننا عبر فاصل. أخذت ميزان الحرارة ووضعته في فم المريضة.

يجب الانتظار خمس دقائق. جلست على كرسي. أحست أن الخمس دقائق بلا نهاية، والفتاة الشابة لا تفارقها بعينيها. تعكس نظرتها عطشاً لا يروى.

تظاهرت الممرضة أنها تتأمل الأثاث لإخفاء حرجها. يوجد على الأرض جلد فيل بحر: «يا لها من فكرة غريبة» فكرت. هذا يشبه المطاط أكثر من السجاد.

بعد 300 ثانية استرجعت ميزان الحرارة، أوشكت أن تفتح فمها لتقول: «38، الأمر ليس خطيراً. حبة أسبرين وينتهي الأمر» لكن حدساً غير مفهوم جعلها تتراجع:

- 39,5 الأمر خطير. كذبت.

- هذا رائع، أتظنين أنني سأموت؟

أجابت فرانسواز بحزم:

- لا، هيا! ولا يجب أن تتمني الموت.

- بلى، أنا مريضة جداً. يجب أن تعودي؟ سألت هازيل بصوت ملؤه الأمل.

- ربما.

- سيكون ذلك رائعاً. منذ مدة طويلة لم أتحدث مع شخص شاب.

ذهبت الممرضة للالتحاق بالعجوز في حجرة التدخين.

- سيدي، ربيبتك مريضة، وحرارتها مرتفعة وحالتها العامة تبعث على القلق. كما أنها توشك أن تصاب بالتهاب الرّئة إذا لم يتم علاجها.

تشنج وجه العجوز.

- إشفها من فضلك.

- يُستَحْسَن نقلها إلى مستشفى.

- لا ينبغي التفكير في ذلك. يجب أن تبقى هازيل هنا.

- تحتاج هذه الفتاة إلى مراقبة مكثفة.

- ألا يكفي أن تأتي أنتِ كل يوم إلى مورت فرونتيير؟

بدت كأنها تفكر.

- يمكن أن آتي كل يوم بعد الظهر.

- شكراً، لن تندمي على ذلك. لقد تم إخبارك دون شك بأني سأدفع جيداً لقاء أتعابك. من جهة أخرى لا ينبغي نسيان التعليمات.

- أعرف، لا أسئلة إلا إذا كانت ضرورية.

ابتعدت وعادت إلى الربيبة.

- اتفقنا، سآتي بعد ظهر كل يوم للعناية بك.

التقطت هازيل وسادتها وأشبعتها ضرباً وهي تطلق صرخات الفرح.

عند عودتها إلى «نو» ذهبت الممرضة الشابّة إلى رئيستها:

- أوشك القبطان أن يصاب بالجناب. ورغم إصراري رفض أن يذهب إلى المستشفى.

- هذا عادي، كبار السن يكرهون المستشفيات. يخشون ألاّ يخرجوا منها أبداً.

- توسل أن أذهب لعلاجه بعد ظهر كل يوم في الجزيرة، لذا أطلب الإذن بالتغيب كل يوم من الثانية إلى السادسة مساءً.

- لك ما تريدين يا فرانسواز، أتمنى أن يشفى السيد سريعاً، فأنا بأمس الحاجة إليك هنا.

- هل من الممكن أن أسألك شيئاً؟ ما العبارات التي استخدمها عند التقدم لطلب العلاج؟

- لا أذكر تماماً، سوى إصراره على نقطتين: شدد على أن تكون ممرضة لا ممرضاً، وألاّ تلبس الممرضة المختارة نظارات طبية.

- لماذا؟

- وهل يتطلب هذا الأمر شرحاً؟ يفضل الرجال دوماً أن يعالجوا من قبل سيدات، وما زالوا يعتقدون أن النظارات تشوّه. يخيل إليّ أن القبطان كان مسروراً عندما رآك هناك، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلته يرجوك العودة ثانية كل يوم.

- هو مريض جداً بالفعل يا سيدتي.

- لا مانع، لكن حذار من أن تدعيه يتزوجك، فأنا لا أريد أن أفقد أفضل ممرضاتي.

وجدت فرانسواز صعوبة في النوم تلك الليلة. ما الذي يحدث في تلك الجزيرة؟ بدا من الواضح أن هناك شيئاً غريباً بين الفتاة والعجوز. ليس مستحيلاً أن تكون تلك رابطة ذات طبيعة جنسية، رغم أن الرجل تخطى منذ زمن طويل مرحلة هذا النوع من السلوك.

لم يكن ذلك كافياً لتفسير اللغز، ففي المحصلة الأخيرة إذا كانا ينامان معاً، ربما ذلك ليس مستساغاً، غير أنه لا يُعدّ جريمة. هازيل فتاة ناضجة وليست هناك قرابة دم بينهما. لا يبدو أن الربيبة قد تعرضت لعنف جسدي.

إذا افترضت الممرضة أن القبطان يخفي علاقتهما المحتملة، فإنها تتمكن من استيعاب سبب تهديده لها بالموت. حالة الفتاة تحيّرها. وصفتها بالضحية المصدومة

والمنحرفة المزاج، وهي فعلاً كانت قريبة من ذلك الوصف، غير أنها تملك أيضاً بهجة مدهشة وحماساً طفولياً يسرّها ويجعلها ترغب في رؤيتها ثانيةً.

نهضت فرانسواز لتشرب الماء. تطل نافذة حجرتها الصغيرة على البحر الليلي. نظرت في اتجاه الجزيرة المختفية في الظلام. ساورها شعور غريب وهي تردد الجملة التي قالتها للمسؤولة: «هناك شخص بحاجة ماسة إليَّ».

أحست بالرعشة وهي تتذكر وجه هازيل.

بعد ظهر اليوم التالي لم تختف الفتاة تحت الأغطية، بل ظلت جالسة في سريرها تنتظر الممرضة. كانت تبدو أفضل حالاً من البارحة وقابلتها بترحاب مَرِح.

أخذت فرانسواز حرارتها. 37 درجة، لقد شفيت. لم تكن إلا نوبة حمى مؤقتة «لكنها قالت 39 درجة».

- هل هذا ممكن؟ أشعر بأنني في أفضل حال.

- غالباً ما يكون الحال كذلك إذا أصيب المرء بالتهاب الرّئة.

- نعم قال القبطان لي إنني أوشك على أن أصاب بالتهاب الرئة.

- ما كان عليه أن يخبرك بذلك.

- على العكس فعل عين الصواب. أنا مسرورة بخطورة حالتي. علاوة على أنني لا أعاني منها. كل مزايا المرض دون السلبيات. زيارة فتاة بمثل لطفك، لم أكن أحلم بأفضل من ذلك.

- لا أدري إن كنت لطيفة.

- أنت حتماً إنسانة طيبة لكونك هنا. باستثناء وليّ أمري لا أحد يأتي لزيارتي. لا أحد يملك الشجاعة لفعل ذلك. الأسوأ من ذلك أنني أفهم هؤلاء الجبناء. فلو كنت مكانهم لشعرت بخوف فظيع.

كانت الزائرة تتحرق لتسأل لماذا، لكنها خشيت أن يكون للجدار آذان.

- الأمر مختلف بالنسبة لك فأنت متعودة في مهنتك على هذا النوع من المناظر.

بدأت الشابة المغتاظة من عدم قدرتها على طرح الأسئلة بجمع حقنها.

- يعجبني أن اسمك فرانسواز. هذا يناسبك تماماً، اسم جميل ورزين.

انفجرت الممرضة ضاحكة بعد أن ظلت برهة مذهولة.

- هذا صحيح! لماذا تضحكين؟ أنت جميلة ورصينة.

- آه!

- كم عمرك؟ نعم، أعرف أنني فضولية. لا تؤاخذيني على ذلك، فأنا أجهل أصول اللياقة.

- ثلاثون سنة.

- هل أنت متزوجة؟

- عازبة ومن دون أطفال. أنت فضولية جداً يا آنسة.

- ناديني هازيل. نعم أنا فريسة للفضول. لدي ما يبرر ذلك. ليست لديك فكرة عن وحدتي هنا منذ خمس سنوات. لا تتصورين مدى فرحتي بالحديث معك. هل قرأت «الكونت دو مونت كريستو»؟

- نعم.

- أنا في وضع شبيه بوضع إدمون دنتيس في قصر ايف، سنوات دون رؤية وجه إنسان، أحفر سرداباً إلى الزنزانة المجاورة. أنت القس فاريا. أبكي من الفرح لعدم بقائي وحيدة. نقضي الأيام في الحديث معاً في تفاهات تثير حماسنا لأننا افتقدنا هذه الأحاديث الإنسانية البسيطة إلى درجة السقم.

- أنت تبالغين. هناك القبطان، وأنت ترينه كل يوم.

ضحكت الفتاة بعصبية قبل أن تقول:

- نعم.

انتظرت الزائرة اعترافاً لم يأتِ.

- ماذا ستفعلين لي؟ هل ستفحصين صدري؟ تعطيني علاجاً خاصاً؟

ارتجلت فرانسواز:

- سأقوم بتدليكك.

- تدليكي؟ لتفادي الإصابة بالتهاب الرّئة.

- الناس لا يقدرون مزايا التدليك. يمكن لمدلك جيد أن يطرد كل المواد السامة من الجسم. نامي على بطنك.

وضعت يدها على ظهر الربيبة وأحست بهزالها من خلال قميص النوم الأبيض. من المؤكد أن التدليك لم يكن يفيد إلا في تبرير وجودها المتواصل قرب هازيل.

- هل يمكننا الحديث خلال تدليكي؟

- بالتأكيد.

- حدِّثيني عن حياتك.

- ليس هناك شيء مهم لقوله.

- لا يهم، احكِ لي.

- ولدت في نو حيث عشت دوماً. تعلمت مهنة التمريض في المستشفى الذي أعمل فيه. كان والدي ملاحاً صياداً وأمي مدرِّسة. أحب العيش على الساحل وأحب رؤية السفن قادمة إلى الميناء. يترك ذلك لدي انطباعاً بمعرفة العالم رغم أنني لم أسافر قط.

- هذا رائع.

- هل تهزئين مني؟

- لا، يا لها من حياة بسيطة وجميلة.

- أنا فعلاً أحب هذه الحياة. أحب مهنتي على وجه الخصوص.

- ما هي أغلى أمنياتك؟

- أحب أن أستقل القطار ذات يوم إلى شيربور. هناك سأركب باخرة كبيرة تأخذني بعيداً.

- عجيب، أنا عشت عكس حلمك. عندما كنت في الثانية عشرة أخذتني سفينة كبيرة قادمة من نيويورك إلى شيربور مع والدي. من هناك أخذنا القطار إلى باريس ثم إلى وارسو.

- وارسو... نيويورك...

رددت فرانسواز بدهشة.

- كان والدي بولندياً وقد هاجر في الماضي إلى نيويورك حيث أصبح رجل أعمال ميسور الحال في نهاية القرن الماضي. التقى بفرنسية شابة في باريس وتزوجها. ذهبت أمي للعيش معه في نيويورك حيث ولدت.

- تحملين إذاً ثلاث جنسيات. هذا أمر غير مألوف.

- أحمل جنسيتين. صحيح أنّه منذ العام 1918 كان

يمكنني أن أحصل مجدّداً على الجنسية البولندية. لكن منذ قصف العام 1918 لم أعد شيئاً يُذكَر.

تذكرت الزائرة أن عليها تفادي الحديث عن الانفجار المشؤوم.

- كانت حياتي، رغم قصرها، شاهدة على سقوطي المستمر. لغاية سن الثانية عشرة كنت هازيل أونجلير، أميرة نيويورك الصغيرة. في العام 1912 أفلست تجارة والدي. عبرنا المحيط بالقليل الذي بقي لنا. كان والدي يتمنى أن يجد أملاك أهله غير البعيدة عن وارسو، فلم يجد إلا ضيعة بائسة. اقترحت أمي الرجوع إلى باريس مفترضة أن الحياة هناك ستكون أسهل. لم تجد عملاً إلا في مغسلة ثياب. أما والدي فبدأ في تعاطي الشراب، ثم جاءت سنة 1914 واستنتج والداي المسكينان أنهما سيعيشان ظروفاً أفضل ببقائهما في الولايات المتحدة، وبلغ افتقارهما لأي حس تاريخي درجة مخيفة جعلهما يعودان إلى هناك. في العام 1918 انطلقنا في اتجاه شيربور في كريوله. كنا على طريق مهجورة تقريباً فريسة لأي غارة جويّة، واستيقظت يتيمة على نقالة.

- في نو؟

- لا، في طنش غير البعيدة من هنا، حيث وجدني القبطان وآواني. أتساءل ماذا كان سيحدث لي لو لم يحمِني. لم يبق لي أي شيء ولا أحد.

- كان ذلك شأن كثير من الناس سنة 1918.

- لكن تفهمين أنه مع ما حدث لي لم أكن قادرة على تدبير أمري. أخذني ولي أمري إلى مورت فرونتيير ولم أخرج منها قط. ما يثير انتباهي في حياتي أنها لم تتوقف عن الانكماش جغرافياً. من آفاق نيويورك الشاسعة إلى هذه الحجرة التي لا أبرحها تقريباً. كان التدرج قاسياً من الريف البولندي إلى القرية الباريسية الحقيرة. ومن عابرة المحيطات إلى السفينة الصغيرة التي حملتني إلى هنا. وأخيراً، لا بل خاصة، من آمال طفولتي الكبيرة إلى آفاق الحاضر المعدومة.

- مورت فرونتيير(*) اسم على مسمى.

- بالضبط. في الواقع قادني مساري من الجزيرة الأكثر عالمية إلى الجزيرة الأكثر انغلاقاً على العالم الخارجي. من منهاتن إلى مورت فرونتيير.

- مع ذلك كم هي مغرية الحياة التي عشتها.

- أكيد، لكن هل من الطبيعي أن يتكلم الإنسان في سني بصيغة الماضي. لم يبق هنا سوى الماضي.

- ولديك مستقبل كذلك. شفاؤك مضمون.

- أنا لا أتكلم عن شفائي، قاطعت هازيل، أتكلم عن مظهري.

(*) أي الحدود الميتة - المترجمة.

- أنا لا أرى أين المشكلة. . .

- بل ترينها. لا داعي للكذب يا فرانسواز! أنا لست غافلة عن طيبتك كممرضة. البارحة لاحظت جيداً تعبير ملامحك عندما كشفت عن وجهي. لقد أصابتك صدمة. بالرغم من حِرَفيّتك لم تستطيعي إخفاء ذلك. لا تظني أني ألومك على ذلك. لو كنت في مكانك لصحتُ بأعلى صوتي.

- تصيحين!

- وهل تجدين في ذلك مبالغة؟ كان ذلك رد فعلي عندما نظرت إلى نفسي في المرآة آخر مرة. أتدرين متى حصل ذلك؟

- وكيف لي أن أعرف؟

- كان في 31 مارس 1918. يوم بلغت الثامنة عشرة، السن التي يتوقع المرء أن يكون فيها جميلاً. حدث القصف في بداية يناير. كانت جروحي قد التأمت. كنت في مورت فرونتيير منذ ثلاثة أشهر وكان غياب المرايا، الذي ربما انتبهتِ إليه، يحيّرني. صارحت القبطان بذلك فقال إنه تخلص من كل المرايا في البيت. سألته لماذا؟ وعندها أطلعني على ما كنت أجهله، وهو أنني مشوهة.

جمدت يدا الزائرة على ظهر الفتاة.

- أرجوك لا تتوقفي عن تدليكي فإن ذلك يهدّئني.

توسلت وليّ أمري أن يجلب لي مرآة، كان يرفض بعناد. أقول له إنني أريد أن أعاين حجم الأضرار، فيجيبني من الأفضل عدم القيام بذلك. يوم عيد ميلادي بكيت. ألم يكن من الطبيعي أن ترغب فتاة في الثامنة عشرة في رؤية وجهها؟ تنهد القبطان وذهب لشراء مرآة أعطاني إياها. في تلك اللحظة اكتشفت فظاعة المسْخِ الذي أصاب وجهي. صحت وصحت، أمرت بتحطيم تلك المرآة التي كانت آخر واحدة من نوعها تعكس مسخاً كهذا. قام القبطان بتكسيرها، وهذا أنبل عمل قام به في حياته.

جعلت الربيبة تبكي غيظاً.

- أرجوك يا هازيل، تمالكي نفسك.

- اطمئني. لا أشك في أنك تلقيت تعليمات بعدم الحديث عن مظهري. إذا وجدني أحد في هذه الحالة سأقول الحقيقة أي لا دخل لك بذلك وبأنني تطرقت إلى الموضوع بنفسي. يستحسن الشرح فوراً لماذا أنا كذلك، وإلى أي مدى يفقدني هذا صوابي. نعم يفقدني صوابي.

- لا تصرخي. قالت فرانسواز بحزم.

- سامحيني، أتعرفين ما أجده غير عادل، أن هذا حدث لفتاة جميلة. كنت فاتنة بالرغم من صعوبة تخيل ذلك. هل تفهمين، كنت لأكون أقل تعاسة لو كان مظهري قبيحاً قبل ذلك القصف.

- لا ينبغي لك أن تقولي ذلك.

- أرجوك دعيني أقول شيئاً غير صحيح إذا رغبت في ذلك. أعلم أنه عليَّ أن أشكر السماء لأنني حصلت على ثماني عشرة سنة من الجمال. لكن أصارحك القول إنني غير قادرة على فعل ذلك. يبدو أن مزاج المولودين مكفوفين أفضل من الذين فقدوا البصر في سن يتذكرونها. أفهم ذلك، أفضل أن أجهل ما لم أعد أملكه.

- هازيل!

- لا تشغلي بالك. أعرف أنني غير منصفة، وأعرف أن حظي كذلك. جئت إلى بيت يبدو أنه قد صمم لي. من دون مرايا ولا حتى أي مساحة صغيرة عاكسة.

- هل لاحظت ارتفاع النوافذ؟ من المؤكد أن الذي شيد هذا المسكن مجنون. ما فائدة السكن قرب البحر إذا لم يكن هناك مَنْظَر تشرف عليه؟ يجهل القبطان المهندس الذي بناه. اختار هو العيش فيه لأنه يمقت البحر.

- في حالة مماثلة كان حريّاً به أن يقطن منطقة «الجورا» الداخلية.

- هذا ما قلته له. أجابني بأن كرهه للبحر من النوع الذي يقترن بالحب، لا عيش معك ولا عيش من دونك.

أوشكت الممرضة على السؤال: «لماذا هذا الكره؟» ثم تذكرت التعليمات في آخر لحظة.

- لو اقتصر الأمر على المرايا فقط ولو اقتصر على زجاج النوافذ فقط، لكنهم لا يسمحون لي بالاستحمام أبداً دون أن يعكّروا الماء بالزيوت المعطرة. ليس هناك أي أثاث مرصع ولا قطعة لامعة. على المائدة أشرب بكأس خشنة وآكل بسكاكين وشوك وملاعق من المعدن المجلوف، كما أن الشاي الذي يقدمونه لي يحتوي على الحليب. كل هذا الاهتمام الموسوس كان سيبعث على الضحك لو لم يكن يرمز إلى مقدار التشوّه الذي أصابني. هل سمعت من قبل عن حالة مثل هذه في مجال مهنتك؟ عن شخص مخيف المظهر إلى درجة أن يتطلب الأمر حمايته من انعكاس صورته؟

بدأت تضحك كأن بها مسّاً فحقنتها الممرضة بحقنة قوية مهدئة جعلتها تنام وغطتها جيداً وهمّت بالمغادرة.

في اللحظة التي كانت تستعد فيها لمغادرة القصر الريفي دون أن يراها أحد، ناداها القبطان:

- أتذهبين دون أن تودعيني يا آنسة؟

- لم أرد إزعاجك.

- أرافقك إلى رصيف الميناء.

في الطريق، استفسر منها عن المريضة.

- عندها حمى خفيفة لكن حالتها تظل حرجة.

- ستعودين كل يوم، أليس كذلك؟
- بالتأكيد.
- يجب أن تشفيها، أتفهمين؟ من الضروري فعل ذلك.

عندما عادت فرانسواز شافين إلى نو وقد اكتسى وجهها تعبيراً لم يلاحظ مثله أحد من قبل. كان من الصعب كشف ما تنم عنه ملامحها التي تجمع بين العصبية الحادة والتفكير والتهور المرح والدهشة.

قال لها زميل في المستشفى:

- تبدين ككيمائية على وشك القيام باكتشاف مهم.
- هذا صحيح. ابتسمت قائلة.

يتناول الوصي العشاء كل ليلة مع الربيبة وجهاً لوجه. بقدر ما الفتاة ذلقة اللسان في حضور فرانسواز، بقدر ما هي بكماء أمام العجوز، حيث تكتفي بالإجابة عن أسئلته النادرة باختصار.

- كيف حالك يا صغيرتي؟

- جيدة.

- هل أخذت دواءك؟

- نعم.

- كلي المزيد من هذا «الغراتان».

- لا، شكراً.

- تبدو لي ممرضتك مميزة. هل أنت مسرورة منها؟

- أجل.

- وفوق ذلك هي جميلة. وهذا حُسْنٌ على حُسْن.

- هذا صحيح.

ثم لم يقولا أي شيء آخر. وهذا لم يضايق القبطان الذي يحب ذلك الصمت. لم يكن يشك في أن ربيبته تكره تلك الوجبات المشتركة.

تفضل الصوم في غرفتها على مواجهة ذلك المشهد. تكره اللحظات التي يتكلم فيها وتكره أكثر اللحظات التي يسكت فيها. لأسباب تعجز عن تحليلها يبدو لها صمت الرجل العجوز وهو مُنكبّ على صحنه، مخيفاً جداً.

يحدث أن يرسل الوصي في طلب الربيبة بعد العشاء إلى صالونه حيث يطلعها على كتب قديمة، موسوعات قديمة وخرائط العالم: يروي لها أسفاره. أحياناً يستذكر معاركه ضد قراصنة أو مغامراته كمزوِّد للمؤن في بحر الصين. لم تعرف قط إذا كانت أحاديثه عبارة عن أكاذيب أم لا. لا تكترث لذلك لأن تلك القصص كانت رائعة وكان يختمها بقوله:

- وها أنذا ما زلت على قيد الحياة.

ثم يبتسم ويحدق بنار الموقد دون أن يضيف شيئاً آخر. الغريب أنها كانت تحب تلك اللحظات كثيراً.

انشرح وجه هازيل. كأنما كُتب عليه: «ها أنت أخيراً» انتبهت الزائرة أن أحداً لم يستقبلها ببهجة مماثلة.

وضعت ميزان الحرارة في فمها. ثلاث مرات كانت كافية ليأخذ هذا التصرف مكانه في نظام طقوسها. طبقاً للشعائر انتظرتا مرور خمس دقائق كل على طريقتها، واحدة تتفحص الأخرى، التي بدورها تتجنب نظراتها. الممرضة تكذب من جديد.

- 39 درجة ثابتة.

- ممتاز، دلّكيني.

- لحظة من فضلك. سأحتاج إلى قِدر، أين يمكنني العثور على واحدة؟

- في المطابخ، كما أظن.

- أين هي المطابخ؟

- في القبو. يجب أن تطلبي من القبطان أن يفتحه لأنه مغلق بالمفتاح. هل تتصورين، يخفي كل قدور الطهي تلك التي يمكن أن أرى فيها نفسي.

ذهبت فرانسواز لرؤية العجوز الذي بدا مرتبكاً.

- قدر! لماذا؟

- غسيل معوي.

- من الصعب تخيل شابة متميزة مثلك تقوم بغسيل معوي. هل يمكنك انتظاري هنا بضع ثوان؟

رجع بعد عشر دقائق مشغول البال.

- ليس هناك قدر. هل ينفع حوض؟

- طبعاً.

نزل مرة أخرى بعد أن تنفس الصعداء، وجلب وعاءً من الخزف غير البراق. شكرته فرانسواز ورجعت إلى الحجرة وهي تخمّن: أقطع يدي إن لم يكن هناك قِدرٌ في هذا البيت لا تعكس شيئاً.

- لِمَ هذا الوعاء؟ سألت هازيل.

- لأجل غسيل معوي.

- رحماك، لا. أكره ذلك.

فكرت الممرضة بضع ثوان قبل أن تجيب.

- إذن، إذا كلمك القبطان عن هذا الغسيل تظاهري بأنني قد أجريته لك.

- موافقة.

- والآن، هل يمكنني استعمال حمامك بعض الوقت؟

انفردت الممرضة فيه، وسمعت الربيبة الماء يسيل، ثم رجعت فرانسواز وبدأت تدلك الفتاة.

- أتعرفين أنني أحب تدليكك؟ إنه ممتع جداً.

- هذا جيد لما تعانين منه.

- ما رأيك في حمامي؟

- لا شيء.

- هيا، أنا متأكدة أنك لم تري مثله أبداً. لا مغسلة ولا مغطس. لا شيء يمكن أن يحبس الماء. الصنابير تسيل في الفراغ والأرض مائلة بشكل يجعل الماء يتسرب من ثقب متصل بالمزراب. عملي جداً للاغتسال! في أغلب الأحيان أستحم بالرشاش إلا إذا تكرّموا وجلبوا لي المغطس الذي حدثتك عنه. أما بالنسبة للمراحيض التي تتشابه في كل البيت، فقد اشتراها القبطان من السكك الحديد الفرنسية لأن الحوض داخل القطار ليس في قعره ماء.

كيف خطرت بباله هذه الفكرة.

ضحكت هازيل بصوت خافت.

- الاحتياطات ساذجة. ليس لدي أدنى رغبة في مجابهة صورتي. من جهة أخرى صحيح أنه من دون هذه التدبيرات الحاذقة يمكنني رؤية انعكاسي سهواً. ويمكن أن يكون مهلكاً لي تماماً كما حدث لنرسيس.

- وماذا لو تكلمت عن شيء آخر غير الموضوع الذي يؤلمك؟ استحواذ وسواس كهذا لا يمكن إلا أن يُسيء لصحتك.

- صدقت. لنتكلم عنك. أنت جميلة، هل لديك خطيب؟

- لا.

- كيف يعقل ذلك!

- أنت تريدين معرفة كل شيء.

- أجل.

- لن أخبرك إلا بما أريد. جاءني ثلاثة خطاب. ارتبطت بكل واحد منهم أربعة أشهر تقريباً، وبعدها افترقت عنهم.

- هل كان تصرفهم سيئاً معك؟

كنت أملّهم، بالرغم من اختياري شباناً مختلفين على أمل أن يكون الأمر مثيراً أكثر. يبدو مع الأسف أن كل الرجال يتشابهون بعد مرور أربعة أشهر.

انفجرت الفتاة ضاحكة.

- احكِ لي المزيد.

- ماذا يمكنني أن أقول لك؟ كانوا شباناً لطيفين، إلا أنه بعد انقضاء سحر اللحظات الأولى، ماذا يبقى؟ يبقى خطيب شهم يريد أن يصبح زوجاً. كنت أحبهم طبعاً، لكن العيش معهم..! أتصور أن الحب حتماً شيء آخر.

- لم تحبّي قط إذن؟

- لا. ما أجده جديراً بالاهتمام هو أني عندما كنت في رفقتهم، كنت أفكر في مرضاي في المستشفى. هذا خارج عن إرادتي: تبدو لي مهنتي أكثر إثارة من المسائل العاطفية.

- هل كان خطّابك صغار السن؟

- في مثل سني تقريباً؟

- ما تقولينه يخفف عني. لم أعرف قط رجالاً صغار السن، وأنا أفقد الأمل من ذلك. عندما كنت في السادسة عشرة أو الثامنة عشرة كان هناك شبان يتوددون إلي غير أنني كنت حمقاء إلى درجة أنني رفضتهم جميعاً. فضلت انتظار الحب الحقيقي الذي عشت بسببه أوهاماً تثير السخرية. لو كنت أعرف أنني سأصبح مشوهة في الثامنة عشرة لما ضيعت كل هذه السنوات الثمينة في انتظار فتى الأحلام. لذا عندما تقولين إن الشبان مخيبون للأمال فإن ذلك يعزيني.

استنتجت الممرضة الشابة أنه إذا كانت هازيل لا تعرف شيئاً عن الرجال الشبان فلديها حتماً تجربة مع من هم أكبر سناً.

- لماذا تتوقفين في وسط رواية شيقة كهذه؟ أخبريني المزيد من الأشياء السيئة عنهم.

- ليس هناك أي شيء سيّئ أضيفه لك عنهم.

- هيا! ابذلي بعض الجهد.

هزت المدلكة كتفيها، ثم خلصت إلى القول.

- ربما هم سطحيون قليلاً.

- أجل، هكذا أتصورهم. عندما كنت في العاشرة، في نيويورك كان هناك ولد أردت الزواج منه. لم يكن ماثيو أكثر جمالاً ولا ذكاءً أو خفة دم من أي شاب آخر. لكنه لم يكن

يقل شيئاً قط. هذا الصمت في اعتقادي يجعله مثاراً للإعجاب. حصل ماتيو على أعلى علامة في الإنشاء، وكان عليه قراءة نصه أمام كل التلاميذ: تعلق الأمر برواية شيء ما حول إجازته في الرياضة الشتوية. فقدت كل رغبة في الزواج منه واستنتجت أنه ليس هناك أي فتى غامض فعلاً.

- أحاديثك تؤكد ذلك وتكتسب قيمة عندما ترويها. على نقيضي.

- لو رآني ماثيو لفرح لأني لم أتزوجه.

- فيمَ تفكرين يا فرانسواز؟

- أعتقد أنك تتكلمين كثيراً.

- وماذا تستنتجين؟

- أنك في حاجة ماسة إلى ذلك.

- هذا صحيح. لا أتكلم هنا بتاتاً. يمكنني فعل ذلك إذا رغبت. عندما أكون معك، أحس أن فمي قد تحرر- هذا فعلاً ما حصل. بالرجوع إلى الكونت دو مونت كريستو عندما تلاقى المحتجزان بعد سنين من العزلة باشرا بالحديث ثم الحديث. كانا لا يزالان في سجنهما لكن كما لو أنهما نصف أحرار لأن كل منهما وجد صديقاً يتحدث إليه. الكلمة تحرر. هذا غريب، أليس كذلك؟

- في بعض الحالات يحدث العكس. هناك من

يجتاحوننا بهذيانهم. ينتابنا إحساس موجع بأننا سجناء كلماتهم.

- هؤلاء لا يتكلمون، بل يثرثرون. أتمنى ألاّ تصنفيني ضمنهم.

- أنت! أحب أن أسمعك، حكاياتك عبارة عن رحلات.

- إذا كان الأمر كذلك فالفضل يرجع إليك. المستمع هو الذي يبعث على الثقة. إذا لم أحس أن أذنك صديقة فإنها لن تلهمني شيئاً. لديك موهبة نادرة وهي الاستماع.

- لست الوحيدة التي تحب أن تسمعك.

- ذلك ممكن، لكن لا أظن أن الآخرين سيحسنون فعل ذلك مثلك. وأنا معك يعتريني إحساس غريب: هو أنني أعيش. عندما لا تكونين هنا، أشعر كما لو أنني لا أعيش. لست قادرة على شرح ذلك. أتمنى ألاّ أشفى أبداً. يوم أشفى ستتوقفين عن زيارتي، وسأتوقف عن الحياة.

لم تجد الممرضة المتأثرة شيئاً تقوله.

خيم صمت طويل.

- كما ترين، حتى عندما أصمت أحس كأنك تسمعينني.

- هذا صحيح.

- أيمكنني أن أطلب منك معروفاً غريباً شيئاً ما؟

- وما هو؟

- سأبلغ الثالثة والعشرين في الواحد والثلاثين من مارس. ستقدمين لي هدية رائعة إذا قلت إنني لن أشفى حتى ذلك التاريخ.

- اسكتي، قالت الممرضة، مذعورة خشية أن يسمعهما أحد.

- أصرّ على ذلك. أريد أن أكون مريضة يوم عيد ميلادي. نحن في الرابع من مارس. تدبّري الأمر.

- لا تلحّي. أجابتها وهي تتكلم بصوت مرتفع مخاطبة بعض الآذان المُنصتة ربما.

عرجت فرانسواز شافين على الصيدلية ثم رجعت إلى المستشفى. ظلت لساعات وهي تفكر في غرفتها. تذكرت أن القبطان طلب من مديرتها إرسال ممرضة من دون نظارة. الآن فهمت أن السبب هو تفادي انعكاس الزجاج.

فكرت وهي في سريرها ليلاً: أنا عازمة على شفائها. لهذا السبب، يا هازيل، ستتحقق أمانيك أكثر مما تتوقعين.

كانت الممرضة تعود ظهر كل يوم إلى مورت فرونتيير. ودون أن تعترف لنفسها بذلك، كانت الربيبة تنتظر تلك الزيارات بنفاد صبر.

- لن تستغربي يا فرنسواز إذا قلت إنك أعز صديقاتي. يجوز أن تعتبري ذلك شيئاً طبيعياً لأنك رفقتي النسائية الحقيقية والوحيدة هنا. مع أنني، منذ طفولتي، لم أتعلق بصديقة قط كما حصل معك.

لم تجد الممرضة ما تقوله فلجأت إلى تعبير تقليدي:

- الصداقة مهمة.

- كنت أقدسها في طفولتي. كانت لدي صديقة عزيزة في نيويورك اسمها كارولين أخلصت لها كثيراً. لم نكن نفترق. كيف أشرح لشخصٍ بالغٍ المكانةَ التي يحتلها في حياتي؟ في تلك الفترة كنت أطمح لأن أصبح راقصة باليه، وتحلم هي أن تفوز في سباقات الخيل. من أجلها تحولت إلى الفروسية ومن أجلي انضمت إلى الرقص. كنتُ قليلة الشغف بالخيول بقدر ما كانت قليلة الشغف بالوثبات التصالبية، لكن، كان الهدف من هذه اللعبة يكمن في البقاء معاً. كنت أقضي إجازة الصيف في كاتسكيلس وهي في الكاب كود: يبدو لنا مرور شهر دون لقاء عذاباً خالصاً. نتبادل رسائل لن يستطيع العشاق صياغتها. للتعبير عن عذاب الفراق بلغ الأمر بكارولين إلى حد قلع ظفر إصبع من أصابع يدها اليسرى وإلصاقه في رسالتها.

- أفّ!

- شكلت تلك الصداقة من سن السادسة إلى الثانية

عشرة، عالمي. ثم حلت الكارثة بوالدي ووجب علينا مغادرة نيويورك. حدثت مأساة عندما أعلمت كارولين بالخبر. بكت وصاحت قائلة إنها سترحل معي. قضينا ليلة بأكملها نجرح معصمينا لنصبح أختين في الدم ونقطع عهوداً خرقاء. ترجّت والديها أن يساعدا والدي دون فائدة طبعاً. أحسست يوم الرحيل أني سأموت. من سوء الحظ كتب لي ألاّ أموت. عندما ابتعدت الباخرة عن الرصيف ظل شريط الورق التقليدي يربطنا. وعندما انقطع شعرت في جسمي بتصدع لا يوصف.

- إذا أقامت على حبّك بعد إفلاس والديك فمعنى ذلك أنها كانت صديقة حقيقية.

- انتظري التتمة. بدأنا مراسلة مثيرة. نكتب عن كل شيء، «المسافة لا تعني شيئاً عندما نحب بعضنا بعضاً بهذه القوة» قالت، ثم تدريجاً بدأت رسائلها تفقد نكهتها. كانت كارولين قد توقفت عن البالية وصارت تلعب التنس مع بنت اسمها غلاديس. «فصلت مثل ثوب غلاديس... طلبت من الحلاق قص شعري مثل غلاديس..» كان قلبي يتفطر عند قراءة ذلك. ثم حدث ما هو أسوأ، كتبت «أغرمنا أنا وغلاديس بشاب يدعى برايان»، تغير أسلوب رسائل كارولين كثيراً، فمن التصريحات المتحمسة المؤثرة انتقلت إلى «نظر برايان إلى غلاديس دقيقة على الأقل. أتساءل ما الذي يعجبه

فيها، فهي قبيحة ومؤخرتها كبيرة». شعرت بالحرج لأجلها، تلك الطفلة الرائعة تتحول إلى أنثى شرسة.

- كانت تلك فترة المراهقة!

- من دون شك، لكن أنا أيضاً كنت أكبر وبالرغم من ذلك لم أصبح مثلها. بعد فترة لم يعد لديها ما تقوله، ولم أتلق منها أي أخبار بعد العام 1914. عشت تلك الفترة في حداد.

- طبعاً كان لديك أصدقاء في باريس!

- ليس كتلك. عندما أقابل كارولين جديدة، لم أكن أرغب في صداقتها. كيف يمكنني الاستمرار في الإيمان بالصداقة؟ من اخترتها نقضت كل العهود.

- هذا محزن.

- أسوأ من ذلك، بنقضها كل العهود، قامت كارولين بإلغاء سنواتنا الست الرائعة وكأنها لم توجد البتة.

- أنت عنيدة جداً.

- كنت ستفهمين لو كنت في مكاني.

- بالفعل، لم أعرف قط صداقة كهذه. مجرد صديقات طفولة أَرَاهُنّ بكل سرور بين حين وآخر، ولا يتجاوز الأمر أكثر من ذلك.

- غريب، أصغرك بسبع سنوات وبالرغم من ذلك أشعر

بأنك سليمة وبأنني مدمرة. خلاصة القول، هموم الماضي لا تهم إذا إن لدي الآن أفضل صديقة: أنت.

- أرى أنك تقيمين الصداقة بسهولة.

- هذا غير صحيح. احتجّت الفتاة.

- لم أقم بشيء يستحق صداقتك.

- تأتين إلى هنا كل يوم لتعالجيني بكل تفان.

- هذه مهنتي.

- وهل هذا سبب لأن لا أكون شاكرة لك؟

- في هذه الحالة كنت ستحسين بالشيء نفسه تجاه أي ممرضة أخرى في مكاني.

- قطعاً لا! لو لم تكوني أنت، لكان هناك اعتراف بالفضل فقط.

تساءلت فرانسواز في سرّها عمّا إذا كان القبطان يسمح بتصريحات هازيل وما رأيه فيها.

سألها هذا الأخير:

- كيف تتطور حالة مريضتنا؟

- ثابتة.

- مع ذلك يبدو أنها تتحسن.

- حمّاها انخفضت كثيراً. يرجع الفضل إلى العلاج الذي أقدمه لها.

- وماذا يشمل هذا العلاج؟

- أعطيها كل يوم حقنة جراباتيرين وهي مادة قوية جداً وتأخذ كل يوم كبسولات لتوسيع القصبات الهوائية وكذلك برامبوران. كما يسمح الغسيل المعوي بين الفينة والفينة بالتخلص من الصديد الداخلي. للتدليك قدرة على إخراج البلغم وبفضله لا ينتشر التهاب الرئة.

- تكلمينني بالعبرية. هل هناك أمل؟

- هناك أمل، لكنه يتطلّب بعض الوقت. وحتى في حالة الشفاء لا ينبغي التوقف عن العلاج والدواء لأن الانتكاسة في حالة الالتهاب الرئوي لا ترحم.

- هل أنت دوماً مستعدة للتكرم علينا بعنايتك اليومية؟

- ولِمَ أرفض؟

- ممتاز. ألح على مسألة ألا تسمحي لأحد بأن يحل مكانك حتى ليوم، ليوم واحد.

- لم أنو ذلك.

- إذا مرضت لا ترسلي أحداً آخر!

- صحتي جيدة.

- شاءت الصدف أن أثق بك، وهذا ليس من عادتي. أتمنى أن أكون مصيباً.

استأذنت فرانسواز لتستقل السفينة. أسماء الأدوية التي اخترعتها أعطتها رغبة قوية في الضحك.

استيقظت في وحشة الليل فريسة للخوف. الغسيل المعوي! إذا كانت للحيطان آذان سيعرف القبطان أنني كذبت وستنتهي مصداقيتي.

حاولت أن تستمع إلى صوت العقل: «صرّح لي بثقته بعدما كلمته عن الغسيل المعوي. نعم، لكن ربما لم يكن قد استوعب ذلك بعد. ربما هو الآن مستيقظ يفكر في هذا. لا، هيا يجب أن يكون مهووساً بشكل خطير حتى ينتبه إلى هذا الأمر الثانوي. من جهة أخرى إذا كان ينصت لأحاديثنا فهو بالفعل كذلك. ربما لا يتنصت علينا. كيف لي أن أعرف ذلك؟ لو كنت متأكدة أنه لا يتجسس علينا، لقلت أشياء لهازيل. كيف يمكنني التأكد من ذلك؟ يجب أن أنصب فخاً لهذا الرجل».

لم تتمكن من النوم بسبب الخطة التي كانت تعدها.

- ما الخطب يا فرانسواز؟ أراكِ شاحبة ومُتعبة الملامح.

- أصبت بالأرق. اسمح لنفسي أن أردّ الإطراء بمثله يا هازيل: أنت متعبة أيضاً.

- آه!

- منذ أن أخبرتك بذلك وأنت تبدين أكثر شحوباً.

- هل تعتقدين ذلك؟

اضطرت الممرضة للجوء إلى حيل شفهية لتحويل أسئلتها إلى أجوبة مؤكدة.

- آمل أنك تنامين جيداً.

- ليس دوماً.

- هيا يا هازيل. من أجل الشفاء ينبغي لك النوم جيداً.

- الأمر خارج عن إرادتي مع الأسف. أعطني حبوباً منومة.

- مستحيل. أنا ضد استخدام هذه العقاقير المخدرة. النوم جيداً مسألة عزيمة.

- خطأ! والدليل أنك أصبت أنت أيضاً بالأرق.

- الأمر يختلف. أجيز لنفسي ذلك لأن صحتي جيدة. لو كنت مريضة لما سمحت لنفسي به.

- أؤكد لك أن ذلك خارج عن إرادتي.

- هيا! تنقصك العزيمة.

- بالاختصار يا فرانسواز. أنت امرأة وهناك أشياء يمكنك فهمها.

- الحيض ليس سبباً لعدم النوم.

- ليس الأمر كذلك. قالت الفتاة متلعثمة ثم احتقن وجهها.

- لا أفهم شيئاً مما تقولين.

- بل تفهمين.

كانت هازيل على حافة الانهيار العصبي بينما حافظت الزائرة على هدوء لاعب أولمبي.

القبطان... أنا والقبطان... قمنا... قام...

- هكذا إذن! استأنفت الممرضة ببرودة مهنية محضة. نمتما معاً.

- هل هذا كل انطباعك؟ سألت هازيل بدهشة.

- لا أرى أين المشكلة. هذا تصرف بيولوجي مألوف.

- مألوف عندما يكون الفرق بين الشخصين أربعاً وخمسين سنة؟

- ما دامت الفيزيولوجيا تسمح بذلك.

- الأمر لا يقتصر على الفيزيولوجيا. هناك الأخلاق.

- لا شيء لاأخلاقياً في المسألة. أنت بالغة وموافقة.

- موافقة! ماذا تعرفين عن ذلك؟

- لا يمكن خداع ممرضة في هذا الموضوع. من الممكن أن أفحصك للتثبّت من الأمر.

- لا، لا تفعلي ذلك.

- رد فعلك يؤكد صحة قولي.

- ليست الأمور بهذه البساطة. احتجت الفتاة.

- أنت موافقة أو لا! لا داعي لأن تمثّلي دور العذراء المفزوعة.

- كم أنت قاسية معي! الواقع أشدّ تعقيداً مما تعتقدين. يمكن للمرء أن ينفر من جسد ويفتن بالروح على نحوٍ يجعله ينتهي بقبول الجسد بالرغم من كونه منفراً. ألم يحدث لك ذلك يوماً؟

- لا، قصتك غريبة.

- ألم تمارسي الجنس يوماً؟

- ضاجعت كل خطّابي من دون أن أربك نفسي بأخلاقياتك المضحكة.

- وما المضحك فيها؟

- تحاولين إقناع نفسك بأن الآخرين يستغلونك. تحتاجين كثيراً إلى جعل نفسك مثالية للحفاظ على الصورة الجميلة التي تحتفظين بها لشخصك.

- هذا غير صحيح.

- أو ربما ككثير من الناس تحاولين إظهار نفسك كضحية. تستهويك فكرة كونك ضحيّة إنسان فظ. أجد هذا الموقف حقيراً وغير لائق بك.

- لم تفهمي شيئاً! صاحت الربيبة وهي تبكي. الأمر ليس كذلك. ألا يمكن أن تتخيلي أن رجلاً ذكياً يمارس تأثيراً فظيعاً على فتاة مسكينة مشوهة، خاصة إذا كان هذا الرجل هو ولي نعمتها.

- أرى أنه مجرد رجل مسن غير قادر على ممارسة عنف جسدي على أي شخص فكيف إذا كان هذا الشخص فتياً مثلك؟

- فتي ولكن مريض.

- تعاودين تمثيل دور الضحيّة!

- ليس هناك عنف جسدي فقط، بل هناك عنف نفسي أيضاً.

- إذا كنت تتعرضين لعنف نفسي فما عليك إلا الرحيل.

- الرحيل من هنا؟ أنت مجنونة! تعرفين جيداً أنني لا أستطيع أن أكشف عن وجهي.

- هذه حجة تناسبك جيداً. أنا أقول إنك تعيشين مع القبطان بملء إرادتك، وليس هناك أي شيء قبيح في نومكما معاً.

- أنت شريرة فظة!

- أقول الحقيقة عوض الانصياع لسوء نيتك.

- قلت إنني بالغة. عندما بدأت القصة لم أكن كذلك. كنت في الثامنة عشرة.

- أنا ممرضة ولست مفتش شرطة.

- هل تجرئين على التلميح أن لا علاقة بين الطب والقانون؟

- من الناحية القانونية القاصرون يخضعون لوصاية الوصي.

- ألا تظنين أن وصيي حماني بطريقة غريبة؟

- الثامنة عشرة سن عادية لأول تجربة جنسية.

- أنت تسخرين مني! صاحت الفتاة وهي تنتحب.

- هل يمكنك التزام الهدوء؟ قالت الممرضة بحزم.

- ألا تعتقدين أن الرجل الذي يضاجع فتاة مشوهة جداً منحرف؟

- لا يحق لي الخوض في هذه المسائل، لكل شخص ميوله. إضافة إلى ذلك يمكنني الاعتراض بالقول إنه يحبك لروحك.

- إذن لِمَ لا يكتفي بروحي؟ صرخت هازيل.

- لا داعي لأن تنزعجي هكذا. قالت فرنسواز بحزم.

رمقتها الربيبة اليائسة، بنظرة بائسة.

- وأنا التي ظننت أنك تحبينني.

- أنا أحبك، لكن هذا ليس سبباً لمجاراتك في مسرحيتك الهزلية.

- مسرحيتي الهزلية؟ أوه، اخرجي، أكرهك.

- حسناً.

جمعت الممرضة الشابة أغراضها. وفي اللحظة التي كانت ستغادر فيها الغرفة، طلبت منها الشابة الصغيرة بصوت متوسل:

- هل سترجعين بالرغم مما حصل؟

- غداً. قالت مبتسمة.

هبطت الدرج وهي مصدومة مما اضطرت إلى قوله.

في الأسفل، فتح باب حجرة التدخين.

- آنسة، هل يمكنك المجيء لثوان قليلة؟ سأل القبطان.

دخلت وقلبها يخفق بسرعة.

كان الرجل العجوز يبدو متأثراً.

- كنت أود أن أشكرك، قال.

- لا أقوم إلا بواجبي.

أنا لا أتكلم عن مهاراتك كممرضة، أرى أنك تمتلكين حكمة كبيرة.

- حقاً؟

- تفهمين الأشياء التي لا تفهمها النساء الشابات عموماً.

- لا أفهم ماذا تعني.

- بل تفهمين جيداً. لقد عالجت الموقف بنفاذ بصيرة. لم يخف عليك الشيء الأهم: أخب هازيل وأكن لها حباً لا يقبل الشك. «أحبّ واعملْ ما تريد» علّمنا القديس أغسطينُس.

- سيدي، هذا ليس من شأني.

- أعرف، مع ذلك أقوله لك، لأنني أقدرك كثيراً.

- شكراً.

- أنا الذي يشكرك. أنت إنسانة مدهشة. وفوق ذلك جميلة. تشبهين الإلهة آثينا: لديك الجمال والذكاء.

أغضت الزائرة الطرف كما لو أنها مرتبكة، ثم استأذنت وغادرت. خارج البيت، اجتاحها الهواء البحري فحررها: تنفست أخيراً.

- بتّ أعرف ما كنت أود معرفته. قالت في سرّها.

بعد تبضعها من الصيدلية، ذهبت إلى الحانة. ليس هذا من عادتها.

- «كالفدوس من فضلك»

- منذ متى أصبحت المرأة تشرب هذا. قال صاحب الحانة في سره.

راح البحّارة ينظرون بدهشة إلى تلك المرأة ذات المظهر الرصين، المستغرقة في تأملات عميقة.

«بما أنني تأكدت من ذلك الآن، ينبغي أن أضاعف الحذر. من حسن الحظ أنه لم يلاحظ مسألة الغسيل المعوي. أرى أنه يتنصت إلى حديثنا دون أن يغادر حجرة التدخين المتصلة حتماً بحجرة هازيل بأنبوب. يا للصغيرة

المسكينة! لابد أنها تعاني! كيف يمكنني إخبارها بأنني في صفها! بعد كل ما قلته لها هل يمكن أن تستمر ثقتها بي؟ أود أن أكتب لها كلمة، لكن ذلك مستحيل، إذ لن يسمح لي الحراس الذين يفتشونني بتمرير أي رسالة». قبل يومين فاجأها أحدهم بقراءة مقادير تركيبة دواء في حقيبتها. سألته ماذا يتوقع أن يجد. أجابها أن بإمكانها إرسال رسائل مشفرة بالتسطير تحت بعض الحروف. لم يخطر ذلك ببالها قط. «ماذا يمكنني أن أفعل مع حراس شريرين كهؤلاء؟ يمكنني أخذ ورقة بيضاء والكتابة في حضور هازيل، لكنها ستطرح الأسئلة. ستقول لي «ماذا تفعلين يا فرانسواز؟ ماذا تكتبين؟ لماذا تضعين إصبعاً على شفتيك؟» الأمر ليس سهلاً مع هذه الساذجة. كلا، يجب أن أستمر في خطتي. حتى لو تطلّب الأمر كل هذا الوقت!»

توجّهت إلى صاحب الحانة وسألته:

- ماذا حصل للقبطان قبل أن يستقر في مورت فرونتيير؟

- لِمَ اهتمامك به؟

- أعالجه حالياً. عنده بداية مرض الالتهاب الرئوي.

- من المؤكد أنه لم يعد شاباً. رأيته آخر مرّة قبل عشرين عاماً، وكان عجوزاً آنذاك، فكيف الآن؟

- البحر يُضني.

- في حالته ليس البحر فقط هو السبب.

- ماذا تعرف عنه؟

- لا شيء مهماً إلا أنه يدعى عمير لونكور. عليك الاعتراف بأن هذا يؤهله لأن يصبح بحّاراً، مهنة لا تخلو من التشويق والمشقّة كما قيل لي، إلى حد أنه كان يمدّ سفن حصار الصين بالمؤن، فجنى ثروة كبيرة. وقد تقاعد منذ ثلاثين سنة.

- لماذا تقاعد مبكراً؟

- لا أحد يعلم. عل أي حال كان مغرماً.

- بمن؟

- امرأة أتى بها على متن سفينته. لم يرها أحد قط. اشترى لونكور الجزيرة وأسكن عشيقته فيها.

- كان ذلك منذ ثلاثين سنة. هل أنت متأكد؟

- طبعاً.

- كيف حدث أنك لم تر تلك المرأة البتة؟

- لأنها لم تغادر مورت فرونتيير.

- كيف تعرف أنها كانت موجودة إذاً؟

- من جاكلين، طباخة لونكور. كانت تتحدث أحياناً عن آنسة.

- هل رأتها؟

- لا أدري. لدى رجال القبطان تعليمات بالتكتّم قدر الإمكان. يقال إن الآنسة إياها توفيت منذ عشرين سنة.

- كيف حدث ذلك؟

- ألقت بنفسها في البحر وغرقت.

- كيف؟

- قصة غريبة. نعم. بعد أيام وأيام بلغت جثّتها شاطئ نو. امرأة منتفخة جداً بالماء كأنها لبابة خبز. من المستحيل القول إن كانت جميلة أو قبيحة. بعد التشريح والتحري استنتجت الشرطة أنها انتحرت.

- لِمَ انتحرت؟

- خمّني أنت!

هذا ما أود أن أفعله. قالت الممرضة التي دفعت ثمن الشراب وغادرت.

في المستشفى استفسرت من أكبر زميلاتها التي كانت في الخمسينات من عمرها، فلم تفدها بشيء يذكر.

- لا أعرف من كانت، لا أذكر.

- ما اسم الغريقة؟

- كيف لي معرفة ذلك؟

- كان بإمكان القبطان قول ذلك.

- بلا ريب.

- يا لها من ذاكرة سيئة. لم تثر انتباهك تفاصيل ما؟

- كانت ترتدي قميص نوم أبيض جميلاً.

«ذوق القبطان في اللباس لم يتغير» استنتجت فرانسواز التي ذهبت للتفتيش في السجلات التي لم تفدها بشيء. توفيت العشرات من النساء في مستشفى نو سنة 1903، ذلك أنها كانت سنة كغيرها.

«على أي حال كان بإمكان لونكور اختراع أي اسم لها لأنه كان الوحيد الذي يعرفها» قالت في سرها.

تساءلت أين تم دفنها.

بدت ابتسامة هازيل مصطنعة.

- فكرت في حديثنا البارحة.

- آه. قالت الزائرة بعدم اكتراث.

- أعتقد أنك محقة، بالرغم من ذلك فأنا غير قادرة على الأخذ برأيك.

- هذه ليست مشكلة.

- هذا ما أعتقد. لسنا مضطرتين لأن نتقاسم آراء أصدقائنا، أليس كذلك؟

- بالتأكيد لا.

- الصداقة شيء عجيب. لا نحب أصدقاءنا لأجسادهم أو أفكارهم. في هذه الحالة من أين يأتي هذا الإحساس الغريب.

- أنت محقّة، هذا مدهش فعلاً.

- هناك ربما أواصر خفية بين بعض الأشخاص. أسماؤنا مثلاً: اسمك شافين، أليس كذلك؟

- نعم.

- يشبه شاتين وشعرك كستنائي اللون. اسمي هازيل، أي شجرة البندق. شعري بلون ثمرة البندق. ننحدر من عائلة متماثلة.

- غريب، اسم يعني شجرة البندق.

الاسم الآخر لشجرة البندق هو بندق «كودري» الذي يساعد غصنه على اكتشاف الينابيع، كأن هذا الخشب يرتعش عندما يحس بقوة ونقاء الماء الذي يتدفق.

- اسمك هازيل يعني كشافة الينابيع.

- وساحرة.

- أود أن أكون ساحرة، لكني لا أملك القوة.

«هذا مؤسف» قالت الممرضة في سرّها.

- إذا لم يكن للكستناء القدرة على اكتشاف الينابيع فهو خشب صلب جداً ومتين لا يتعفن مثلك يا فرانسواز. تابعت الفتاة الشابة.

- لا أدري إذا كان ينبغي لنا الالتفات إلى معاني الأسماء، لقد أعطيتِ لنا من دون قصد.

- أنا أعتقد أنها تعبير عن القدر. عند شكسبير، تقول جولييت إن حبيبها روميو سيبقى رائعاً كما هو تحت أي اسم آخر. مع أنها البرهان على العكس، فهي التي أصبح اسمها الرائع أسطورة. لو أسمت جولييت نفسَها... لا أدري...

- جوزيان؟

- نعم، لو أنها سمّيَت جوزيان، لما كان جرى ما جرى.

انفجرتا ضاحكتين.

- أنا متعبة.

- سيساعدك استنشاق الهواء على التحسن، عوض أن تكوني محجوزة هنا.

- لا أحب الخروج.

- هذا مؤسف أود أن أتنزه على شاطئ البحر.

- اذهبي.

- لا أستمتع بذلك من دونك.

- لا تصرّي.

«يا لها من غبية» فكرت الزائرة مغتاظة. على الأقل يمكننا الحديث في الخارج بحرية.

- أنا لا أفهمك. لا يوجد مخلوق على هذه الجزيرة. إذا ذهبنا للتجول فلا أحد يمكنه رؤيتك. ليس هناك شيء ليخيفك.

- ليس هذا هو السبب. خرجت مرة لأتنزه. كنت وحدي إلا أنني شعرت بوجود من يتبعني. كان ذلك مرعباً.

- تخيلاتك كثيرة. كل ظهر يوم أمشي من رصيف الميناء إلى هنا ولم أر قط أي شبح.

- لا يتعلق الأمر بالأشباح، بل حضورٌ، حضورٌ مؤلم. لا يمكنني أن أقول أكثر من ذلك.

تحرقت الممرضة لأن تسأل الفتاة عما إذا سمعت عن عشيقة لونكور السابقة. طرحت السؤال بشكل غير مباشر.

- أحب كثيراً قمصان نومك.

- وأنا أيضاً. القبطان هو من أهداها لي.

- إنها رائعة. يا لها من نوعية! لم أر مثلها قط في المحال التجارية.

- ذلك لأنها قديمة. قال لي القبطان إنه ورثها عن أمه.

«ليست على علم بشيء» استنتجت الممرضة.

- من المحزن أن نمتلك قمصاناً كهذه عندما نكون مشوهين. تتطلب هذه وجهاً خالياً من العيوب.

- لا تعودي للشكوى يا هازيل!

- أود أن أهديك واحداً منها. سيليق بك كثيراً.

- أرفض. لا نعطي ما قُدِّم لنا من هدايا.

- اسمحي لي فقط أن أقول شيئاً. أنت جميلة، جميلة جداً، إذن اصنعي لي معروفاً. كوني سعيدة به. استمتعي به، فهو هدية لا مثيل لها.

قبل الذهاب إلى رصيف الميناء، راحت فرانسواز تتمشى على طول شاطئ الجزيرة. عشرون دقيقة قد تكفي لإكمال دورة حول الجزيرة.

لم تكن الممرضة من النوع الذي يؤمن بالتقمّص الغريب، إذ إنها تعرف أن شخصاً غرق هنا منذ عشرين سنة خلت، لذا لا حاجة إلى الاستعانة باللامعقول كي تجد تلك الأماكن مخيفة.

لم تجد، على عكس توقعاتها، أي قبر. «أنا بالفعل غبية لأنني أبحث عنه! لم يكن لونكور ليجازف بأمر كهذا. إذا تطلّب تحديد كل مكان قتل فيه شخص قبراً فلن تكون الأرض والبحر إلا مقابر شاسعة». مع ذلك لمحت مقدمة حجارة على شكل سهم يشق الماء. تأملتها ملياً ودون أن تكون متأكدة من شيء انقبض قلبها.

في اليوم التالي عند وصولها إلى الجزيرة، صادفت القبطان الذي كان مغادراً.

- عليَّ الذهاب إلى نو لإنجاز بعض الأمور. ستبحر السفينة اليوم ذهاباً وإياباً مرتين بشكل استثنائي. لا تقلقي. ستكون هنا في الوقت المحدد لنقلك إلى اليابسة. أتركك مع صغيرتنا المريضة.

«هذا أعجب من أن يكون صحيحاً!» قالت الممرضة في سرّها. خشيت أن يكون ذلك فخاً، فراحت تسير ببطء شديد صوب القصر الريفي، حتى تتمكن من رؤية لونكور يصعد على متن السفينة. عندما أبحر هذا الأخير أغلقت الباب خلفها وهُرعت إلى حجرة التدخين.

قامت بفتح كل أدراج المكتب الموجودة هناك فوجدت بين الأوراق صوراً قديمة، واحدة منها مؤرخة بتاريخ 1893. «سنة ميلادي» قالت مخاطبة نفسها قبل أن ترى على الصورة فتاة جميلة كالملاك. اسم مسجل على قفا الصورة: «أديل».

تأملتها المتطفلة. نضرتها وأناقتها يحبسان الأنفاس. تخيلت فرانسواز فجأة أن لونكور لم يكن السجان الوحيد في هذا البيت. أعادت إغلاق الأدراج وعادت أدراجها إلى حجرة بمريضتها. كانت هذه في انتظارها شاحبة.

- تأخرت عشر دقائق!

- هل هذا سبب لأن تكوني على مثل هذه الحال؟

- أنت لا تفهمين أنك الحدث المهم في نهاري. لم تتأخري من قبل.

- ذلك لأنني كنت أستأذن من القبطان الذي كان ذاهباً لقضاء بعد الظهر على اليابسة.

- كان مغادراً؟ لم يعلمني بالأمر.

- لترتيب بعض الأمور، قال لي. سيكون هنا بحلول المساء.

- إنه لأمر مؤسف. كنت أتمنى أن لا يعود وأن تكوني قد تلقيت مهمة رعايتي هذه الليلة.

- أعتقد أنك لست بحاجة إلى الرعاية، يا هازيل.

- بل أنا بحاجة إلى صديقة كما تعلمين. عندما كنت صغيرة لم يكن من النادر أن تأتي كارولين للنوم عندنا. كنا نقضي ليالي بطولها نحكي الحكايات ونخترع الألعاب ونضحك. أتمنى أن يعود ذلك الزمان.

- لم يعد هذا يناسب سننا.

- منكدة!

فكرت الممرضة عندما كان ميزان الحرارة في فم الفتاة أن تطرح عليها بعض الأسئلة. واحسرتاه! لنفترض أن أحد حراس لونكور قد حل محله للتنصّت. من جهة أخرى تمنت أن لا يكون أحد رآها عند خروجها من حجرة التدخين.

- 38 درجة!

قضت بعض الوقت في الحمام، ثم رجعت وبدأت في التدليك المعتاد. تأكدت من الآن فصاعداً أن هازيل كانت تتحدث إليها دوماً بحرية دون شك في مراقبة يمارسها العجوز عليهما. أرادت الآن أن تجس نبض الفتاة في موضوع آخر. بدأت الممرضة تتكلم بصوت عادي.

- فكرت في حديثنا البارحة. كنت محقة، الأسماء مهمة، ومنها ما يجعلنا نحلم. ما الاسم المفضل لك بالنسبة لفتاة؟

- من قبل كان كارولين. الآن فرانسواز.

- أنت لا تميزين بين ذوقك وصداقاتك.

- هذا صحيح من جهة فقط. مثلاً، لو كان اسمك جوزيان، لما كان ذلك اسمي المفضل.

- أليست هناك أسماء تحبينها دون أن تكوني قد صادفت من يحملونها؟

تابعت أكبرهما سناً، متمنية أن لا يلومها الوصيف الذي يتنصت عليهما، فهذه أسئلة ليس لها علاقة بالطب.

- لم أفكر في ذلك البتة، وأنت؟

- أنا أحب اسم أديل بالرغم من أنني لم أعرف يوماً فتاةً تحمل هذا الاسم.

انفجرت الربيبة ضاحكة، ولم تعرف المدلكة كيف تفسر ذلك.

- لا تختلفين عني. أديل تشبه نطقك اسمي بالفرنسية.

- هذا صحيح، لم أفكر في ذلك. قالت الممرضة مندهشة.

- أنت تستعيرين ذوقك من صداقاتك أيضاً. هذا إذا كنت صديقتك.

أضافت بصوت منخفض.

- أنت تعرفين أنك كذلك. هل تعتقدين أن هازيل وأديل لهما المعنى نفسه؟

- بالتأكيد لا. لكن غالباً ما يكون الجرس أهم من المعنى. أديل: نعم، جميل. أنا كذلك لم أعرف يوماً شخصاً باسم أديل.

استنتجت الزائرة أنها لا تكذب.

راجعت فرانسواز شافين من جديد سجلات مستشفى نو، فلم تجد أية أديل توفيت سنة 1903.

أجهدت فكرها في تذكر شكل خط لونكور «ربما أتعب نفسي عبثاً، إذ قد تكون ممرضة قد قامت بكتابته خطأ، وقد يكون الخط الذي على قفا الصورة ليس للقبطان».

راجعت كل الوفيات النسائية سنة 1903: مجزرة عادية.

«ليست المستشفيات إلا مأوى للمحتضرين» قالت في سرّها.

كانت قد أوشكت على الانتهاء من جردتها عندما لمحت أنه في تاريخ 28 ديسمبر 1903 «وفاة أ. انغلي، المولودة في بوانت أبيتر بتاريخ 17- 1- 1875».

أ. يمكن أن تكون أديل طبعاً، لكن أيضاً يمكن أن تكون آن، أميلي أو أنجيليك. مع ذلك يذكر الخط في دقة متناهية بذلك الموجود على قفا الصورة. روى لها رجل الحانة أن لونكور جاء على متن سفينة بتلك المرأة التي لم يكن اسمها غريباً. الغوادلوبي ملائمة لهذه القصة. إضافة إلى ذلك يطابق تاريخ الولادة عمر الفتاة الموجودة على الصورة. لم يكن سبب الوفاة محدداً، والأغرب من ذلك هو الاسم المقتصر على الحرف الأول. جرت العادة أن تسجل الأسماء بالكامل وأن يحدد المرض أو ظروف الوفاة. «يا له من خطأ أيها القبطان! الصمت أبلغ من كل شيء، بالإضافة إلى ذلك كان

بإمكانك حذف «ولدت في» التي كان من الممكن أن تظل مضمرة، إذ إنها تدل على جنس الجثة. أنت طبعاً لم تكن تشك أنه بعد عشرين سنة من الوقائع ستقحم فضولية أنفها في أسرارك».

في اليوم التالي استدعاها القبطان إلى حجرة التدخين.

- خيبت أملي يا آنسة! خيبت أملي كثيراً! أخطأت الظن بك.

شحبت الممرضة.

- كانت ثقتي بك كبيرة. الآن تبدّدت إلى الأبد.

- لا عذر لي يا سيدي. كنت بحاجة إلى المال، لذا فتحت أدراج المكتب.

نظر إليها لونكور بدهشة.

- وزيادة على ذلك فتشت مكتبي؟

شعرت برعب فظيع، لكنها استمرت في تمثيل دور السارقة.

- كنت أمني النفس بالعثور على بعض النقود أو أشياء ثمينة يمكنني إعادة بيعها. وبما أنني لم أجد أشياء ذات قيمة فلم آخذ شيئاً. اطردني.

- من غير الوارد أن أطردك، على العكس.

- بما أنني قلت إني لم آخذ شيئاً!

- أوقفي هذا التمثيل. ليس المال هو ما تهتمين به. من حسن الحظ أنني ذهبت إلى نو البارحة، وإلا كنت سأظل أثق بك.

- هل تحريت عني؟

- لم يكن ذلك ضرورياً. كنت ماراً من زقاق عندما رآني الصيدلي. خرج من محله ليقول لي أشياء بالغة الأهمية. يبدو أنك تشترين منه ميزان حرارة كل يوم.

- إذاً؟

- إذاً، تساءل الرجل الطيب عما تفعلينه بميزان الحرارة كل يوم. لم يتمكن من ربط ذلك بالرعونة. لا يمكن أن يكون كسر ميزان حرارة في اليوم إلا مفتعلاً، فاستنتج أنك تحاولين تسميم أحد بالزئبق.

ضحكت.

- أنا قاتلة؟

- تحرى الصيدلي وعلم أنك تشملينني الآن بعنايتك المتواصلة. ظن أنك تحاولين قتلي. أفحمته بقول أشياء جيدة عنك. يبدو لسوء حظك أنه صدقني.

- لسوء حظي؟

- أجل، إذ لو صمم على تصنيفك كمجرمة لأخطر ربما الشرطة التي كانت ستقلق لغيابك.

- ليس الشرطة فقط، بل سيستفسر موظفو المستشفى عني.

ابتسم.

- تم ترتيب هذه التفاصيل. أعلنت صباح اليوم لرئيستك أنني سأتزوجك، وأنك لن تعودي للعمل.

- ماذا؟

- الأمر العجيب أنها هتفت قائلة إن قلبها حدثها بذلك، يا لسوء حظي ويا لسعد حظك! امرأة جيدة وجميلة جداً ومستقيمة.

- أرفض الاقتران بك.

ضحك.

- تضحكينني. فتشت هذا الصباح غرفة ربيبتي واكتشفت السر في الحمام داخل الخزانة. الوعاء الذي يحتوي على الزئبق. لا أعرف ما الذي يعجبني أكثر، ذكاؤك أم حماقتك. الذكاء، لأن ذلك يتطلب التفكير. كل يوم يفتشك رجالي الذين تلقوا تعليمات بعدم السماح بإدخال أية مادة عاكسة. لكن من كان سيفكر في زئبق ميزان الحرارة! فكرة الحوض

المطاطي الضروري للغسيل المعوي لا يستهان بها كذلك.

- لا أفهم شيئاً مما تقول.

- وماذا كنت تنوين عمله بهذا الزئبق؟

- لا شيء. كان يحدث أن ينكسر ميزان الحرارة سهواً وحفاظاً على النظافة كنت أجمع الزئبق في ذلك الوعاء.

- طريف جداً. لزم الأمر كسر أكثر من عشرة موازين حرارة للحصول على هذا الكم من الزئبق. وهنا تتجلى حماقتك أو على الأقل سذاجتك. برأيك كم ميزان حرارة يجب كسره لتكوين سطح عاكس؟

- كيف لي أن أعرف؟

- على الأقل أربعمائة. فكرت دون شك أن لديك الوقت الكافي، أليس كذلك؟ أفترض أنك برمجت شفاء ربيبتي للسنة القادمة.

- هازيل فعلاً مريضة.

- هذا جائز، لكنها لا تعاني من الحمّى. عاينت الأمر بنفسي، لدي أنا كذلك ميزان حرارة. بالمناسبة، ألم تشعري بالإحباط عندما استنتجت أن الزئبق يأبى إلا أن يظل في هيئة حبيبات صغيرة عوض أن يتجمع في بركة صغيرة. هذه هي إحدى خصائصه.

- تزول هذه الخاصية إذا كانت الكمية كبيرة.

- يعجبني توقفك عن إنكار الوقائع. تختفي هذه الخاصية بالفعل شريطة قضاء سنة في ملء هذا الوعاء، ذلك لأن للزئبق خواصاً أخرى. آنستي العزيزة إذا لم أكن أشك في قدراتك كممرضة، فإني أسمح لنفسي بأن أشك في عبقريتك ككيميائية. توقف صناع المرايا عن استعمال الزئبق منذ عشرين سنة، لأنه ليس ضرورياً، وخاصة لأنه سام جداً.

- لا يمكن أن يؤذى أحداً وهو مخبأ داخل خزانة.

- لا يؤذى أحداً، الوعاء فقط يا صديقتي العزيزة. بعد شهر أو شهرين سيتآكل معدنه ويكشف عن مخزونك الثمين، عندها ستذهب كل جهودك هباءً. كنت ستصابين بنوبة عصبية عندما تستنتجين ذلك.

- لست من النوع الذي يصاب بالنوبة العصبية. ثم إنك لست واثقاً تماماً مما تقوله. يمكن للوعاء أن يقاوم ولو لم يثر الصيدلي ظنونك كنت سأنجح في مهمتي.

- كنت بالتأكيد ساذجة عندما اعتقدت أن بإمكانك شراء ميزان حرارة يومياً لأكثر من سنة دون أن تثيري الشكوك. ومع ذلك لم أخبرك بعد بالشيء الأكثر طرافة. لدي خبرة في صنع المرايا. أنت تعرفين أن لدي أسباباً للاهتمام بها. عزيزتي، إذا افترضنا أنك نجحت، خلافاً لما هو منطقي، في شراء أربعمائة ميزان حرارة دون إثارة الفضول وبأن الخزف سيقاوم، مع ذلك كنت ستفشلين.

- لماذا؟

- لأنه دون قشرة زجاجية على السطح لا يمكن للزئبق أن يرسل انعكاساً. أعتقد أنك ستبكين، مهما كانت أعصابك فولاذية، عندما تكتشفين ذلك. هذا وتعرفين أن رجالي يفتشونك ولن يتركوا زجاجاً يمر أبداً.

- لا أصدقك. هناك انعكاس في الزئبق.

- هذا صحيح شريطة تحريكه بشكل دائري. وعليه، لن يكون الأمر صعباً إذا تم هز الوعاء قليلاً، لكن كنت ستحصلين على سطح مقعر وستكونين في قمة السادية لو وجّهت مرآة مشوهة للفتاة المسكينة، ألا تعتقدين ذلك؟

انفجر ضاحكاً.

- أنت فعلاً في موضع يسمح بالاعتراض على هذا النحو.

- الأمر مختلف بالنسبة لي. أحب هازيل والغاية تبرر الوسيلة.

- لو كنت تحبها، كنت ستحاول بالأحرى أن تجعلها سعيدة، أليس كذلك؟

- صحيح أن للآنسة تجربة كبيرة في الحب! ثلاثة خطّاب دون فائدة ولم تشعري تجاههم بأي شيء، أليس كذلك؟ ثم إن هازيل سعيدة.

هذه المرة هي التي ضحكت.

- هذا واضح جداً، يا سيدي العزيز! من المؤكد أن ليس لديك فكرة كيف يمكن أن تكون المرأة سعيدة. أظن أن أديل السابقة كانت تبدو لك سعيدة، حتى أنها انتحرت في سن الثامنة والعشرين. هذا إذا كانت بالفعل قد انتحرت.

شحب لون العجوز.

- إذا كنت تعرفين اسمها فمعنى هذا أنك رأيت صورتها في درج المكتب.

- فعلاً. جمال أخاذ. يا للخسارة!

- أجل، انتحارها كان خسارة، لأنه لا يمكنك الشك في أنه كان فعلاً كذلك.

- لا أتردد في اعتباره قتلاً. احتفظت بها لمدة عشر سنوات في مثل ظروف ربيبتك. كيف يمكنها أن لا تنتحر؟

- لا يحق لك قول ذلك! كيف كنت سأريد موتها، أنا الذي كنت أحبها أكثر من أي شيء؟ حسب التعبير الشائع، لم أكن أعيش إلا من أجلها. عندما انتحرت، تعذبت لدرجة لا يمكنك تصورها. لم أعد أحيا إلا لذكراها.

- لم تسأل نفسك لماذا أقدمت على الانتحار.

- أعرف، أن لدي عيوباً. ليست لديك فكرة عما هو الحب: إنه مرض يجعل الإنسان شريراً. بمجرد أن نحب

أحداً بقوة، لا يمكننا تمالك أنفسنا عن إلحاق الأذى به خاصة إذا أردنا إسعاده.

- نحن، نحن، نحن، تريد القول أنت! لم أسمع قطّ عن رجل أعد لحبيبته مصيراً كهذا.

- شيء طبيعي. الحب ليس تجربة شائعة جداً عند بني البشر. من دون شك أنني الحالة الأولى التي تصادفينها وذلك لأنني أسمح لنفسي بالاعتقاد بأنك ذكية بما فيه الكفاية لتدركي أن السلوك العاطفي لأمثالك لا يستحق اسم الحب.

- إذا كان الحب يتلخص في الإيذاء، لِمَ لا تستعجل الغاية؟ لم تقتل أديل منذ لقائكما الأول.

- لأن الأمر ليس بهذه البساطة. العاشق شخص معقد يحاول الإسعاد أيضاً.

- قل لي كيف تحاول إسعاد هازيل؟ هذا يفوق إدراكي.

- أنقذتها من البؤس المزري الذي كانت تعيش فيه. تعيش هنا في الترف واللامبالاة.

- أنا متأكدة أنها تتمنى مئة مرة أن تكون فقيرة وحرة.

- إنها محاطة بالاهتمام والحنان والحب والاحترام. إنها محبوبة، وتعرف وتحس بذلك.

- يا لها من سعادة.

- بالطبع، أنت لا تعرفين السعادة التي يحسها الشخص المحبوب.

- أعرف تلك التي تنبع من الإحساس بالحرية.

ضحك العجوز بسخرية.

- وهذا يجعلك تشعرين بالدفء في فراشك ليلاً!

- ما دمنا وصلنا إلى هذا الموضوع الذي يستحوذ عليك، يجب أن تعرف أن هازيل تخشى الليلة التي تذهب فيها إلى حجرتها.

- أجل هذا ما تقوله. على الرغم من ذلك فهي تحب ذلك. هناك دلائل واضحة تعرفين ذلك.

- اصمت، أنت سافل.

- لماذا؟ لأنني أوفر اللذة لحبيبتي.

- كيف يمكن لفتاة شابة أن ترغب في رجل كريه مثلك.

- لدي براهين لكني أشك في أنك تعرفين ذلك بشكل كافٍ. لا يبدو لي أن الجنس يهمك. الجسم بالنسبة لك شيء يتم الكشف عنه وعلاجه وليس منظراً طبيعياً نبهجه.

- مع ذلك، إذا كنت توفر لها المتعة، ما الذي يجعلك تعتقد أن ذلك كاف لجعلها سعيدة.

- اسمعيني! لديها ترف وأمان مادي. كما أنها محبوبة بجنون وبكل معنى الكلمة، ولا تثير الشفقة.

- تصر على تجاهل شيء ثانوي، أليس كذلك؟ الوضع اللامعقول الذي تركتها فيه منذ خمس سنوات.

- هذا أمر ثانوي بالفعل.

- أمر ثانوي! أظن أنك لجأت إلى الحيلة نفسها مع أديل.

- نعم، إذ إنني بنيت هذا البيت من أجلها في البداية.

- ألم يخطر ببالك يوماً أن هذه المؤامرة الفظيعة هي التي دفعتها إلى الانتحار؟ كيف تجرؤ على القول إنه أمر ثانوي؟

تجهم لونكور.

- اعتقدت أنها لو أصبحت تحبني فلن تشغل بالها بذلك.

- يجب أن تعلم الآن أنك كنت مخطئاً. كنت معذوراً في المرة الأولى لأنك كنت تجهل ذلك. والآن رغم فشل تجربتك مع أديل تكرر ذلك مع هازيل. ألا ترى أنها ستنتحر هي الأخرى؟ الأسباب نفسها تؤدي إلى النتائج نفسها.

- لا. لم أنجح في جعل أديل عاشقة، ذلك أنني أخطأت التصرف. استنتجت الدروس من أخطائي. هازيل تحبني.

- يسكنك غرور مضحك. كيف يمكن لفتاة رقيقة أن تتعلق بعجوز داعر؟

ابتسم القبطان.

- هذا غريب، أليس كذلك؟ يدهشني الأمر أيضاً. ربما تفضل الفتيات الرقيقات الرجال العجائز المقرفين.

- وكذلك ربما لم تجد الفتاة المعنية خياراً أمامها. أو ربما أن العجوز قد أخطأ عندما ظن أنها عاشقة.

- من الآن فصاعداً لديك كل الوقت لتفكري في هذه المسألة العاطفية لأنك وكما لاحظت لن تغادري مورت فرونتيير أبداً.

- هل ستقتلني بعد ذلك؟

- لا أعتقد ذلك. هذا لن يروق لي لأنني أكنّ لك مودّة كبيرة، ثم إن هازيل أصبحت مبتهجة منذ أن بدأت تهتمين بها. إنها كائن هش ولو أنها ليست مريضة كما تدعين. سيؤثر اختفاؤك عليها كثيراً. ستستمرين إذن في علاجها كما لو أن شيئاً لم يكن، ولك الأمان مؤقتاً. لكن لا تنسي أن أحاديثكما تخضع كلها للتنصت. سأرسل رجالي لمجرد سماع كلمة غامضة.

- حسناً، في هذه الحالة سأصعد إلى حجرة هازيل فقد تأخرت كثيراً.

- أرجوك، افعلي ما ترينه مناسباً.

قال لونكور بسخرية.

كانت اليتيمة في انتظارها متشنجة الملامح.

- أعرف، تأخرت كثيراً.

- فرانسواز، لم أعد أعاني من الحمى.

- أخبرني القبطان بذلك. هذا خبر جيد.

- لا أريد أن أشفى!

- ما زلت بعيدة عن الشفاء. لم تكن الحمى إلا دلالة على مرضك الذي لم يختف بعد.

- هل هذا صحيح؟

- أجل، صحيح. تخلصي إذن من هذه الملامح اليائسة.

- لكنني... سأشفى يوماً. فراقنا ليس إلا مسألة وقت.

- أقسم إن الأمر ليس كذلك. أنا على يقين أن مرضك مزمناً.

- لماذا أحس إذن بأنني بصحة أفضل بكثير؟

- هذا لأنني أعالجك، ولن أتوقف عن العناية بك أبداً. لو توقفتُ فستعاودك الآلام.

- يا لسعادتي!

- لم أر يوماً شخصاً سعيداً لكونه مريضاً.

- إنها هبة السماء. يا لها من مفارقة. لم أحس يوماً بهذه الحيوية والنشاط إلا عند بداية المرض.

- هذا لأنك كنت مريضة من دون أن تعرفي. أما الآن فعلاجي وتدليكي يجلبان لك العافية.

- الأمر لا يتوقف على التدليك فرانسواز، مع أني لا أشك في فعاليته، بل عليك أنت وعلى حضورك. يذكرني هذا بحكاية هندية سمعتها عندما كنت صغيرة. كان عند أمير هندي فتاة صغيرة يحبها، لكنها أصيبت للأسف بمرض غريب. بدأت تذبل دون أن يفهم أحد سبب ذلك. استُدعي جميع الأطباء في البلد وأبلغوا أنهم إذا تمكنوا من شفاء الأميرة فسيُغمرون بالذهب، وإذا فشلوا ستُقطع رؤوسهم لإعطائهم الأمير أملاً كاذباً. توالى كبار الأطباء في المملكة على حجرة الطفلة ولم يغيروا شيئاً فقُطعت رؤوسهم. لم يبق بعد فترة قصيرة طبيب في الهند. في تلك الأثناء جاء شاب فقير وأعلن رغبته في علاج الأميرة. سخر منه سكان القصر وقالوا له «ليس لديك دواء ولا أدوات، فكيف تلقي بنفسك إلى الهلاك؟». دخل الشاب إلى جناح الأميرة الفخم وجلس على حافة سريرها وراح يسرد لها الحكايات والأساطير والقصص. كان راوياً جيداً فأشرق وجه المريضة الصغيرة، وبعد أيام قليلة شفيت. تبين أن المريضة كانت تعاني من الملل. لم يترك الفتى الطفلة بعد ذلك أبداً.

- هذا جميل، لكن قضيتنا مختلفة. فأنت التي تسردين لي القصص الجميلة.

- الأمر سيان، وكما أخبرتك المخاطب هو من يثير المحادثة.

- خلاصة القول إنني أسليك.

- لا، لا يمكنني القول إنني أشعر بالملل. تحت تصرفي مكتبة القبطان الضخمة ومن حسن الحظ أنني أعشق القراءة. الوحدة هي ما كنت أعاني منه قبل مجيئك.

- ماذا تطالعين؟

- كل أنواع الروايات والشعر والمسرح والحكايات. أعيد القراءة أيضاً فهناك كتب تبدو أفضل عند إعادة قراءتها. قرأت رواية «راهبة بارما» أربعاً وستين مرة، وكل قراءة كانت أكثر إثارة من سابقتها.

- كيف يمكن أن نرغب في قراءة رواية أربعاً وستين مرة؟

- لو كنت عاشقة متولّهة فهل كنت سترفضين قضاء أكثر من ليلة مع عشيقك؟

- لا مجال للمقارنة.

- بلى، النص نفسه أو الرغبة نفسها يمكن أن يؤديا إلى كثير من التغيرات ومن المؤسف التوقف عند واحدة منها، خاصة إذا كانت الرابعة والستون هي الأفضل.

تصورت الممرضة وهي تصغي إليها أن لونكور ربما كان محقّاً عندما ذكر متعة الفتاة.

- لست مثقفة مثلك. قالت المدلكة بنبرةٍ فيها الكثير من الإضمار.

بعد مرور ساعتين طلب منها الرجل العجوز أن تتبعه.

- لن تكون ربيبتي طبعاً على علم بوجودك هنا. ستكونين معزولة في سكنك في الجناح الآخر من القصر.

- وكيف سأقضي وقتي إذا استثنينا هاتين الساعتين اللتين أقضيهما عند هازيل؟

- هذه مشكلتك. كان عليك التفكير في ذلك قبل أن تقحمي نفسك في ميدان صناعة المرايا.

- يبدو أنك تملك مكتبة ضخمة!

- ماذا تودين القراءة؟

- راهبة بارما.

- أتعلمين أن ستاندال قال إن الرواية مرآة نصحبها معنا في الطريق؟

- هذا فعلاً هو النوع الوحيد من المرايا الذي يحق لربيبتك أن تمتلكه.

- لا يوجد أفضل منه.

وصلا إلى غرفة كانت حيطانها ومقاعدها وسريرها مغطاة بقطيفة حمراء غامقة.

- نسميها الغرفة القرمزية. لا أحب هذا اللون كثيراً. وإذا كنت بالرغم من ذلك قد اخترته فلأنني أحب هذه الكلمة التي لا تتيح لنا الحياة استعمالها كثيراً. وهكذا وجدت فرصة لتردادها، وبفضلك سأفعل ذلك أكثر.

- غرفتي في نو جيدة الإضاءة إذ فيها نافذة حقيقية تطل على البحر وليست مجرد كوة يستحيل الوصول إليها.

- إذا أردت الإضاءة، استخدمي المصابيح الكهربائية.

- ضوء الشمس ما أريد. لا يمكن لأي ضوء أن يعوّضه.

- هنا نفضل الظل. أتركك الآن لتنظّمي أمورك.

- أنظّم أموري؟ لا متاع لدي يا سيدي.

- أعددت لك بعض الملابس للتبديل.

- هل يحق لي كذلك أن أستعمل حاجيات أديل؟

- أنت طويلة ونحيفة. ستكون ملائمة لك. هناك حمّام بالقرب من غرفتك. سيأتي خادم بالعشاء، وبالرواية التي تريدينها بطبيعة الحال.

أقفل الباب بالمفتاح وذهب. سمعت الممرضة درجات السلم وهي تئزّ تحت قدميه، ثم لم يعد هناك إلا ضجيج الأمواج الخافت.

بعد مرور ساعة أتى وصيف برفقة حارس يحمل صينية عليها طبق حساء وسمك وبط بالبرتقال وأشياء أخرى والرواية.

«يا له من بذخ» قالت في سرها، لكنها لم تكن متعودة على تناول الطعام وحدها، ولهذا السبب بدا لها الطعام الرديء الذي تشاركه مع زملائها في غرفة الطعام في المستشفى ألذّ وأطيب.

بعد العشاء استلقت على السرير وبدأت في قراءة رواية ستاندال. قرأت منها عدة صفحات قبل وضعها جانباً. ماذا تحب هازيل في قصص معارك نابوليون والنبلاء الإيطاليين؟ إنها تصيبني بالملل. ربما لأن مزاجي ليس على ما يرام.

أطفأت النور وبدأت تفكر في كتاب آخر كلّمتها هازيل عنه وكانت قد قرأته «الكونت دو مونت كريستو». «كانت صديقتي العزيزة متنبئة عندما ذكرت هذه الرواية. ها أنا من الآن فصاعداً سجينة مثلك في قصر إيف».

توقعت أن تعاني من الأرق. لكن على العكس غرقت في سبات عميق. في اليوم التالي أيقظها لونكور بربتة على يدها. أطلقت صرخة ثم اطمأنت لرؤية الخادم وراءه الذي كان يبدل طبق العشاء بآخر للإفطار.

- نمت بكامل ملابسك دون أن تتدثّري باللحاف.

- بالفعل، لم أكن أتوقع أن يغلبني نوم ثقيل. هل وُضع مخدّر في طعامي؟

- لا، أكلت مثلنا. الواقع أننا ننام جيداً في مورت فرونتيير.

- يا لحظي لاستضافتي في جنة كهذه. لماذا جئت؟ كان يمكن أن ترسل أحداً من رجالك إذا تعلق الأمر بإيقاظي فقط؟

- أحب رؤية الفتيات الجميلات وهن نائمات. ليس هناك مشهد أجمل بالنسبة لرجل عجوز.

من جديد سجنت بإغلاق الباب بإحكام. بعد الإفطار استلقت مع الرواية والخجل يستبدّ بها، استنتجت أنها ما زالت تشعر بالملل. سئمت فوضعت الكتاب وقررت أن تتمرن بطيش. فتحت خزانة الملابس التي اختارها لها القبطان. كانت فساتين يرجع طرزها إلى ثلاثين سنة خلت، طويلة متقنة الصنع وبيضاء في أغلبها.

«هذه الشهوة التي تستحوذ على الرجال تجاه النساء المرتديات ملابس بيضاء» قالت في سرها.

أخذت واحداً منها بدا لها غاية في الجمال. وجدت صعوبة في ارتدائه من دون مساعدة، ذلك لأنها معتادة على قميص العمل الذي ترتديه في ثانيتين. عندما تجمّلت أرادت أن ترى كيف أصبحت لكنها تذكرت غياب المرايا.

استاءت قائلة: «ما فائدة ارتداء ملابس فاخرة إذا كان لا يمكننا رؤية أنفسنا؟»

خلعت ملابسها وقررت الاغتسال في الحمام، لكن لم يكن هناك مغطس أو مغسلة في الحمام. «دوماً تلك الرهبة من الانعكاسات، سيصيبني هذا البيت بالجنون».

ظلت تحت الدش مدة ساعة وهي تعد خططاً لا تفضي إلى نتيجة. استلقت ثانية وهي نظيفة مثل معدات جراحية «لا أتوقف عن الإحساس بالرغبة في النوم هنا!» تذكرت معلومة تلقتها عند تدريبها: بعض الأشخاص الذين ولأسباب مختلفة غير راضين عن مصيرهم يتخلصون من عدم رضاهم بحل لا شعوري يسمى الهروب إلى النوم وذلك وفق درجة حزنهم. يمكن أن يتدرّج ذلك من نعاس مفاجئ إلى سبات مرضي.

«هذا ما يحدث لي الآن» شخصت بحنق. بعد مرور دقيقة علمت أن هذا شيء لا بأس به. «لم المقاومة؟ على أي حال ليس لدي شيء أفضل يمكن عمله. يصيبني هذا الكتاب بالملل وليس هناك مرآة لتجريب الملابس والتفكير لا يؤدي إلى نتيجة. النوم عمل رائع وحكيم».

غرقت في النوم.

كان الرجل العجوز يقف قرب حافة سريرها.

- هل أنت مريضة، يا آنسة؟

- أستغل اعتقالي لمنح نفسي علاجاً بالنوم.

- هذا غداؤك. سآتي بعد ساعتين لأخذك إلى ربيبي. كوني مستعدة.

بدأت تأكل نصف نائمة، ثم ارتمت على السرير وهي تحس أن النوم يداهمها من جديد. أخيراً تمكنت من جر نفسها إلى الحمام حيث أخذت دشاً مثلجاً أيقظها. ارتدت الفستان القديم الذي جربته من قبل، ثم سرحت شعرها بقدر من العناية يسمح بها غياب المرايا.

حين دلف لونكور إلى حجرتها ظل فاغراً فمه:

- ما أجملك! قال وهو ينظر إليها بلطف.

- يسرني سماع ذلك. لو كنت أملك مرآة ربما كنت أستمتع بذلك أيضاً.

- كنت محقاً. أنت في مثل نحافتها غير أنك لا تشبهينها.

- بالفعل، لا أبدو كعصفورة بالنسبة للقطة.

ابتسم وأخذها إلى الجهة الأخرى من القصر. تركها تدخل إلى حجرة هازيل التي أطلقت صرخة.

- فرانسواز، هل هذا أنت؟ أين زيّ الممرضة؟

- هل تفتقدينه؟

- أنت رائعة. استديري، هذا شيء رائع ماذا يحدث؟

- اقتنعت أنني لا أحتاج إلى لباس معين للتدليك. هذا الفستان تركته لي أمي ووجدت أنه من السخافة عدم ارتدائه.

- أوافقك على هذا القرار. تبدين في أناقة لا مثيل لها.

- أنت تملكين ملابس جميلة أيضاً.

- بما أني أقضي معظم الوقت في السرير فقد عدلت عن ارتدائها. ليست هناك مناسبة لفعل ذلك.

- سيسعد القبطان برؤيتك بملابس جميلة.

- لا أدري إن كنت أرغب فعلاً في إسعاده.

- ما هذا الجحود؟

سألت الممرضة التي ابتهجت لفكرة أن العجوز يسمع ذلك.

- أنا شريرة دون ريب. تنهدت الربيبة. أثار أعصابي البارحة، وجدته متوتراً وأكثر غرابة من أي وقت مضى. لدي انطباع أنه يخفي شيئاً أو على وجه التحديد يخفي شيئاً عن العالم بأسره. ألا تظنين ذلك؟

- لا.

- أليس غريباً، هذا البحّار الذي رغم كرهه للبحر يعيش على جزيرة منعزلاً عن الجنس البشري.

- لا. تابعت الممرضة وهي تقول في سرّها إن البحر يبادله الكره الذي يكنه له.

- كيف تشرحين إذن ذلك.

- أنا لا أشرحه، هذا ليس من شأني.

- إذا كنت حتى أنت لا تفهمينني.

أسرعت فرانسواز بتغيير الموضوع بعدما شعرت أنه أصبح خطيراً.

- البارحة بعد حديثنا تمكنت من الحصول على رواية ستاندال التي لم أعرفها من قبل.

- يا لها من فكرة جيدة! إلى أين وصلت؟

هتفت هازيل بحماس شديد.

- ليس بعيداً، بصراحة إنها مملة.

- كيف يعقل ذلك؟

- قصص جيوش مدينة ميلانو تلك والجنود الفرنسيين.

- ألا يعجبك ذلك؟

- كلا.

- مع ذلك هي رواية جميلة. لا يهم، هذا الفصل ليس طويلاً. ستصلين بعد ذلك إلى شيء مختلف تماماً. إذا كنت تفضلين الحب، فهو موجود.

- ليس هذا ما يثير اهتمامي كثيراً في القراءة.

- وما الذي تحبين قراءته؟

- قصص السجن. أجابت الممرضة بابتسامة غريبة.

- لقد طرقت الباب المناسب، أبطال ستاندال يدخلون غالباً إلى السجن، وهذا ما حصل مع فابريس ديل دنغو. أنا مثلك أعشق قصص السجن.

- ربما لأنك أنت نفسك لديك الانطباع أنك موجودة فيه.

قالت الأكبر سناً التي تلعب بالنار.

- هل هذا ضروري. ليس هناك انطباع ورغم ذلك هذه الروايات تثير إعجابنا. المسألة أن هناك لغزاً مدهشاً في الاعتقال. عندما لا يعود الكائن البشري يملك موارد أخرى إلا شخصه، كيف يمكنه أن يستمر في العيش؟

- إن ما يجعل السجن مثيراً للاهتمام برأيي هو الجهود التي يبذلها السجين للهرب.

- لكن الهرب ليس ممكناً على الدوام.

- لا بل هو ممكن على الدوام.

- يحدث كذلك أن نعتاد السجن، وهذا ما حصل لبطل ستاندال الذي لم يعد يريد التحرر منه. فرانسواز اقسمي أن تستمري في قراءة هذا الكتاب.

- حسناً.

- وخُصّيني بمتعةٍ أخرى: سرّحي شعري.

- عفواً!

- هل من الضروري تدليكي دون توقف؟ أطلب استراحة. سرحي شعري فأنا أعشق ذلك.

- في ضفيرة؟

- لا أهمية. ما أحبه هو أن يهتم شخص بشعري. منذ سنوات لم يمشطه ولم ينظفه لي أحد.

- كان عليك طلب ذلك من القبطان.

- الرجال غير قادرين على لمس الشعر بنعومة. يتطلب ذلك أيدي امرأة، ولو أنها ليست أي امرأة كانت. أيدٍ رقيقة محبة مداعبة ماهرة.

- اجلسي على هذا الكرسي.

أذعنت هازيل فرحة. أخذت الممرضة المشط ومررته في شعر الربيبة الطويل. أغمضت هذه الأخيرة عينيها لفرط سعادتها.

- ما أروع هذا!

قطبت الممرضة حاجبيها.

- هيا يا هازيل. تخيلي أن أحداً سمعنا، سيتساءل...

- انفجرت الفتاة ضاحكة.

- لا أحد يسمعنا، ثم ما هي المشكلة في أن تمشطي شعر صديقتك؟ استمرّي في ذلك أرجوك.

راحت فرانسواز تسرح الشعر الرمادي الأحمر من جديد.

- يا للبهجة. أحببت ذلك دوماً. عندما كنت صغيرة كانت فتيات المدرسة يدخلن أيديهن في شعري. أعتقد أنني كنت أتركه طويلاً لهذا الغرض. كان ذلك ممتعاً حقاً، لكن كنت أفضل الموت على الاعتراف بذلك، وعندما تأتي صديقاتي لتمشيط شعري بأصابعهن كنت أتظاهر بأنني مرهقة ومتضايقة. الشيء الذي يستفزهنّ أكثر. كلما تنهدت باستهجان زادت الفتيات من لعبهنّ بشعري. كنت أخفي استمتاعي. ذات يوم أراد صبيّ التدخل في الأمر، شدّه بقوة حتى صحت من الألم. المغزى من ذلك، يجب ألا يتدخل الرجال في ما لا يعنيهم.

- شرعت الشابتان في الضحك.

- لديك شعر رائع، يا هازيل، لم أر شعراً مثله بهذا الكمال من قبل.

- من الضروري أن يكون لديك شيء ما جميل. في رواية «العمة فانيا» لتشيكوف، هناك بطلة بشعة تتحسر قائلة: «يقال دوماً للفتيات القبيحات إن شعرهن وعيونهن جميلة»، أنا لا يمكن لأحد أن يقول لي عيناك جميلتان.

- هل ستعودين للشكوى ثانية؟

- اطمئني. مم أشكو وأنا أحس بكل هذه المتعة؟ سرحي شعري الآن من فضلك. أهنئك، تفعلين ذلك بشكل رائع. يتطلب المشط موهبة أكبر من الفرشاة. شيء مبهر. لك يدان حاذقتان.

- هذا المشط رائع.

- لسبب بديهي وهو أنه مصنوع من خشب الكاميليا. جلبه القبطان من اليابان منذ أربعين سنة.

تصورت الممرضة أن أديل استعملته حتماً قبلها.

- هذه مزية العيش مع رجل لم يتوقف عن ركوب البحار: يمنحني أشياء نادرة تأتي من بعيد ويروي حكايات جميلة بقدر ما هي غريبة. هل تعرفين كيف كانت اليابانيات يغسلن شعورهن في الماضي؟

- لا.

- أكلمك عن الأميرات بطبيعة الحال. كلما كانت اليابانية من مستوى اجتماعي أرقى، تركت شعرها أطول.

- كانت شعور عامة نساء الشعب أقصر، وهذا عملي لمقتضيات العمل. عندما كانت علامات القذارة تظهر على شعر أميرة، كانوا يترقبون يوماً مشمساً. حينئذ تذهب الآنسة النبيلة إلى النهر مع وصيفاتها تستلقي على حافة النهر وتدلي شعرها في الماء، ثم تقفز الوصيفات إلى النهر وتأخذ كل واحدة منهن واحدة من ضفائر الأميرة الكثيرة، تبللها بمسحوق الخشب الثمين كالكافور أو الأبنوس وتدلكها بأصابعها ثم تغسلها في الماء الجاري. بعد ذلك يخرجن من الماء ويرجون الأميرة أن تتمدد في مكان أبعد قليلاً، حيث يتمكنّ من بسط الشعر المبلول على اليابسة. تعاود كل وصيفة العناية بالخصلة التي غسلتها فتمسك بمروحةٍ وتهزّها، كما لو أن مائة فراشة تصفق كلها معاً بأجنحتها لتنشيف شعر الآنسة.

- شيء مبهر.

- لكنه مضجر. هل فكرت في عدد الساعات التي يستغرقها عمل كهذا؟ ولهذا السبب كانت اليابانية فيما مضى لا تغسل شعرها إلا أربع مرات في السنة. يصعب علينا تخيل شعر الجميلات الذي غالباً ما يلمع بالقشرة في حضارة مُرهفة يتربع فيها مذهب الجمال سيداً.

- أنا مولعة بهذه الطريقة التي تسردين فيها القصص الجميلة، ثم تقومين بعدها بتدمير الشاعرية.

- لن يزعجني أن أكون يابانية. ستكونين أنت وصيفتي ونذهب سوياً إلى النهر لتغسلي شعري.

- يمكننا عمل ذلك في البحر.

قالت فرانسواز وقد غمرها الأمل لفكرة التمكن أخيراً من إخبار هازيل ما يخفى عنها.

- ماء البحر مضرّ بالشعر.

- وما أهمية ذلك؟ ستغسلينه بعد ذلك بالدش. هيا بنا فوراً.

- قلت كلا. كيف تريدين أن أتخيل نفسي في اليابان وأنا محاطة بالساحل النورماندي؟

- سنذهب مقابل المحيط.

- أنت حمقاء يا فرانسواز. كيف يمكنك الدخول في هذا الماء المثلج في شهر مارس.

- أنا لا أخشى شيئاً. هيا تعالي. أخذت تتوسل وهي تجرها من ذراعيها.

- لا قلت لك من قبل. لا رغبة لي في الخروج.

- أنا أرغب في ذلك.

- يمكنك الخروج من دوني.

«لا يحق لي ذلك.» قالت الممرضة لنفسها وهي تجر هازيل نحو الباب. تملصت منها هذه الأخيرة وهي تصرخ بجنون.

- ما الذي أصابك؟

- كم أتمنى أن نكون وحدنا.

- نحن وحدنا.

بعد أن يئست الممرضة من كثرة المجازفات التي أخذتها والتي لم تؤد إلى نتيجة، أمرت الربيبة بالاستلقاء من جديد وبدأت تدلكها باستسلام.

أعادها حارسان إلى الحجرة القرمزية. بعد قليل لحق بها القبطان.

- حذار يا آنسة! أنت تتجاوزين الحدود.

- عاقبني إذن!

- يمكنني تطبيق اقتراحك على الفور.

- سوف تندم كثيراً إذا قتلتني. هازيل ستفقد عقلها.

- أليس هناك إلا القتل؟

- فيمَ تفكر؟

- أترك ذلك لمخيلتك.

- أستعاقبني إذا أعدتُ الكرّة؟

قضت فرانسواز شافين الليلة في قراءة «دير بارما» ولدهشتها الكبيرة بدأت تستمتع بها كثيراً. أنهت الرواية عند السادسة صباحاً.

في بداية بعد الظهر أتى رجال لونكور لمرافقتها إلى حجرة هازيل التي بدت مهمومة.

- أنا من يجب أن تحزن فقد عاملتني البارحة كخادمة.

- سامحيني يا فرانسواز. أعرف أنني لست دوماً لطيفة المعشر. أتدرين اليوم هو التاسع والعشرون من مارس. عيد ميلادي بعد يومين، وأنا ميتة من الخوف.

- ليس هناك شيء يجعلك تخشين بلوغك الثالثة والعشرين.

- المسألة ليست هنا. القبطان مبتهج لأننا معاً نساوي قرناً من الزمن. المسنون لديهم هوس بالأرقام، وأنا خائفة من الطريقة التي سيحتفل بها، إذا فهمت ما أعنيه.

رأت الممرضة أن من الحكمة تغيير الموضوع.

- لن تصدقي أنني أنهيت قراءة رواية «دير بارما». قضيت الليل في قراءتها.

- وهل أعجبتك؟

- هذا أقل ما يمكن قوله.

تبع ذلك أسئلة مطولة «هل أحببت عندما... وهل أحببت اللحظة التي...» ولأن الرواية كتاب كبير وصل بهما النقاش إلى حد الاختلاف.

- بالطبع أن فابريس وكليليا غبيان. لاسنسيفرينا والكونت موسكا هما بطلا القصة الفعليان. الكل متفق على ذلك، لكن مشهد السجن ممتع جداً إلى درجة أننا نسامح هذين الغبيين، علقت هازيل.

- هل ذلك عندما كان فابريس ينظر إليها من ثقب الزنزانة؟

- كلا، عندما كان معتقلاً للمرة الثانية وجاءت تهبه عذريتها.

- عمَّ تتحدثين؟

- قرأت الكتاب أم لا؟

- أعرف أي مشهد تقصدين، لكن لم يتم تحديد أنهما مارسا الحب.

- ليس مكتوباً بشكل واضح ومع ذلك ليس هناك شك في الأمر.

- إذن كيف تفسرين عدم إحساسي بهذا الانطباع عند قراءتي لهذه الفقرة؟

- ربما كنت شاردة.

- هل نحن بصدد الحديث فعلاً عن المشهد الذي تأتي فيه كليليا إلى الزنزانة لتمنعه من أكل وجبته المسمومة؟

- أجل، يقول النص: «لم يتمكن فابريس من مقاومة حركة شبه لاإرادية. لم يصادف أية ممانعة» تأملي جمال هذه العبارة الأخيرة.

- تحفظين الكتاب عن ظهر قلب!

- هذا أضعف الإيمان بعد قراءته أربعاً وستين مرّة، خاصة هذه الفقرة التي هي برأيي أجمل مثال على التضمين في الأدب.

- أعتقد أن انحرافك هو الذي يرى التضمين في هذا المشهد.

- انحرافي؟ قالت اليتيمة متعجبة.

- لا بد من أن يكون الشخص منحرفاً ليرى فضّ البكارة في هذا المشهد.

- يجب أن يكون متزمتاً كيلا يرى ذلك.

- متزمتة! لا، ممرضة نعم. لا تفض بكارة الفتيات بهذه الطريقة.

- وهل أنت خبيرة في المسألة؟ ضحكت هازيل بسخرية.

- أنا واقعية فقط.

- لا يستوجب الأمر أن يكون الشخص واقعياً، بل هاوياً للأدب.

- بالضبط. يقول النص: حركة شبه لاإرادية. لا تفض البكارة بحركة شبه لاإرادية.

- لم لا؟

- أولاً أنا أسمّي ذلك حركة.

- إنه تلطيف للكلمة.

- أجد أن اللجوء إلى التلطيف لفض بكارة فتاة أمر مبالغ فيه.

- وأنا أجد ذلك ظريفاً.

- ثم ولنفترض أن هذه الحركة هي بالفعل فض بكارة، لا يمكن أن تكون لاإرادية.

- ولم لا؟

- يتعذب من أجلها في مئات من الصفحات ولا يقوم بعد ذلك بمعاشرتها بشكل لاإرادي.

- هذا لا يعني أن ذلك كان شيئاً مفاجئاً أو أنه غير

مرغوب فيه، إنه غارق في شغفه وغير قادر على التحكم في نفسه.

- الذي يزعجني هو هذا «الشِّبْه».

- مع أنه من المفروض أن يعزيك كونه يُلطِّف هذا «اللاإرادي» الذي يكدرك.

- على العكس. يتعلق الأمر بفض بكارة، هذا «الشِّبْه» لا يحتمل. هناك وقاحة في هذا الوصف تجعل تأويلك مستبعداً.

- من الممكن فضّ البكارة بوقاحة.

- ليس عندما يكون المرء محروماً بجنون.

- لم تعوِّديني على هذه الرومانسية، يا فرانسواز.

قالت الفتاة وهي تبتسم بسخرية.

- أتذكر سماع أحكام جنسية ذرائعية متطرفة من فمك هذا.

- بالضبط. كيف تريدين أن يعاشرها في الزنزانة؟ على حافة طاولة؟

- تقنياً هذا ممكن.

- ليس مع عذراء مذعورة.

- لم تبدُ لي مذعورة كثيراً. لو طلبت رأيي، هي أتت عامدةً منح نفسها لفابريس.

- هذا لا يتماشى مع طبعها المتصنع، لكن لنعد إلى التقنية. هل فكرت في ملابس النساء الداخلية لتلك الفترة؟ كانت أكثر تعقيداً من أن تجعل هذا الأمر ممكناً. كان يتطلّب من المرأة أن تتعاون. هل تتخيلين كليليا متعاونة لفض بكارتها.

- تبدي الفتيات أحياناً جرأة مدهشة.

- هل تتكلمين من منطلق التجربة؟

- لن نغير الموضوع. فابريس شاب إيطالي متحمس وبطل رواية مهمة تعود إلى القرن الماضي، ولهان يحب كليليا. بعد انتظار لا محدود يجد أخيراً الفرصة للبقاء وحيداً مع حبيبته. سيكون عديم الرجولة إن لم يغتنم الفرصة.

- أنا لا أقول إنه لم يمسها. أقصد أنه يفعل شيئاً آخر.

- آه، وهل يمكننا معرفة ذلك.

- تبدو لي كلمة «حركة» مرادفة بالأحرى لمداعبة.

- مداعبة! أين؟ كوني أكثر وضوحاً.

- لا أدري... الصدر.

- سيكون قد رضي بالقليل متحذلقك هذا. يجب أن يكون عديم الجرأة حتى لا يريد المزيد.

- «متحذلقي» تتكلمين كأنني الكاتب. أنا أكتفي بالتعليق على ما هو مكتوب.

- هراء. ميزة الكتب الجيدة أن كل قارئ يكون هو الكاتب. تجعلينه يقول ما تريدين. وأنت تريدين أشياء قليلة.

- ليس ما أريده. لو أراد ستاندال لكليليا أن تفقد عذريتها في ظروف كهذه لتكلم عن ذلك أكثر. لما كان أنهى الأمر في جملتين غير محددتين.

- بلى، على العكس. هذه هي اللباقة. كنت تريدين تفاصيل؟

- أجل.

- هذا أسلوب ستاندال يا فرانسواز وليس أسلوب برام ستوكر. الأحرى بك أن تطالعي قصص مصاصي الدماء. سترضيك مشاهد سفك الدماء أكثر.

- لا تسيئي إلى برام ستوكر، فأنا أستمتع به.

- وأنا كذلك أحب الإجاص والرمان. لا أعيب على الإجاص أن مذاقه مختلف عن الرمان. أحب الإجاص لمذاقه الشهي وأحب الرمان لأنه يلطخ الرقبة.

- مثل جيد.

- بالمناسبة، إذا كنت تحبين مصاصي الدماء فعليك بقراءة كاميلا لشيريدان دو فانو.

- بالرجوع إلى «دير بارما» ألا يمكنك اعتبار أن كلينا

على حق؟ إذا كان ستاندال قد اكتفى بجملتين، فربما يريد أن يكون غامضاً أو ربما هو نفسه لم يتمكن من البت في الأمر.

- لنفترض ذلك. لكن لِمَ تصرين كثيراً على أن يكون الأمر كذلك؟

- لا أدري. أعتقد أن بإمكان شخصين أن يحسا بتعلقهما الشديد ببعضهما دون أن يتعارفا بالمعنى التوراتي للكلمة.

- اتفقنا

استمر التدليك في صمت.

أتى لونكور لزيارة فرانسواز شافين في الحجرة القرمزية بعد عشر دقائق من رجوعها إليها.

- جلبت لك رواية «كاميلا» بعدما حزرت أنك ستتوسلين للحصول عليها.

- أرى أنك ما زلت لا تفوت كلمة من أحاديثنا.

- سأكون مخطئاً لو حرمت نفسي منها. وجدت أن سماع فتاتين تناقشان فض بكارة كليليا شيء ممتع. بالمناسبة أنا مع فكرة أن الكونتي بقيت عذراء.

- أستغرب سماعك تقول ذلك. أنت لست من أنصار العفّة.

قالت بنبرة ساخرة.

- بالفعل، لكنني أصنف فابريس ديل دونغو كغبي مطلق وبسببه اتخذت رأيي.

- يبدو لي أمراً عادياً أن يحتقر عجوز شهواني شاباً مثالياً.

- أمر عادي كذلك أن تحتقر امرأة طاهرة عجوزاً شبقاً.

- هل جئت إلى هنا لتطلعني على مفاهيمك الأدبية؟

- لا أريد تبرير شيء. أحب الحديث معك هذا كل ما في الأمر.

- وأنا لا أبادلك الشعور نفسه.

- لا يهم يا آنستي العزيزة. أنا أعزك كثيراً. أحب إغاظة وجهك الجميل.

- هذه شهوة جنسية أخرى مقترنة بالشيخوخة.

- أنتِ لا تتخيلين المتعة التي يغمرني بها هذا النوع من التعليق. أعشق استهجانك. صحيح أن لدي الملذات التي أقدر عليها. تصوري أنها ممتعة وأرقى من مسرات الشباب الرخيصة. خلقت لأكون عجوزاً. هذا يناسبني، وأنا كذلك منذ زمن طويل. كنت أبدو في الخامسة والستين عند بلوغي الخامسة والأربعين. أصاب البحر وجهي بالتجاعيد.

- لا أكترث لاعترافاتك.

- عندما التقيت أديل كنت في السابعة والأربعين وهي في الثامنة عشرة، غير أن فارق العمر كان يبدو أكثر بكثير. أخبرك

بذلك لأنك الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أتحدث إليه عن أديل. لم أتكلم عنها لأحد قط لسبب بديهي.

- أنت في حاجة إلى الكلام عن ذلك؟

- حاجة ماسة قدر ما هي غير مشبعة منذ عشرين سنة. هازيل ليست على علم بشيء ومن الضروري أن لا تعرف شيئاً. يمكن أن يوحي لها ذلك بأفكار سيئة.

- وخاصة أن يفتح لها عينيها على الكذب الذي تمارسه معها. هي لا تعرف أن قمصان نومها كانت للأخرى كما لا تعرف أيضاً أنك مهندس ومخطط هذا البيت الغريب. تعتقد أنك اشتريته كما هو.

- هناك مزيد من الأشياء التي تجهلها وتجهلينها أنت أيضاً.

- تحدث عنها بما أنك تتحرّق شوقاً لذلك.

- عندما التقيت أديل قبل ثلاثين سنة في بوانت أبيتر، أُصبت بصعقة. رأيت صورتها، ملاك هابط من السماء. لم أكن قد أحببت من قبل أبداً، وشاء القدر أن أكون في مظهر عجوز. كانت الآنسة لنغلي اليتيمة المُوسِرَة تحظى بكثير من المعجبين. لم يكن لدي أدنى فرصة. ثم وقع المُحتّم. أقيم حفل راقص على شرف نائب مارمن غوجلوب وتمّت دعوة كل أهل بوانت أبيتر. أجل ليس لديك أية فكرة عن الأشياء

المضحكة التي قمت بها بهدف رؤية تلك الفتاة التي لم تنتبه لوجودي. كنت أشاهدها ترقص وأنا مشدوه بيأس. من يعرف العذاب النفسي أفضل من عجوز مغرم وهو يرى أمام عينيه الحب المثالي متعذر المنال.

- هدنة الأحكام النهائية. وماذا فعلت؟

- لا شيء. لأتكلم كالأطفال، ليس أنا من أخذ المبادرة بل القدر هو الذي تدخّل. كان الحفل في أوجه عندما اندلع حريق هائل. حدث هيجان كبير وهرب الشباب الذين كانوا يهبون أنفسهم قبل خمس دقائق لأديل دون تفكير فيما ستؤول إليه الأمور. أثر الرعب على هذه الأخيرة بشكل غريب. ظلت متسمرة في مكانها وسط اللهيب كأنها غائبة عن الوعي. كانت إذا أمكن القول غائبة عن الوعي وهي تقف متجمدة تتأمل النار برعب شديد، وأنا لم أفارقها ثانية واحدة، ما يبرهن كما تلاحظين على أنني الوحيد الذي أحبها فعلاً.

- عذر جميل.

- قولي ما شئت، لكنني على الأقل من أنقذ حياتها. كانت ستهلك دون شك وسط اللهيب لو لم أكن هناك.

- لنقل بالأحرى أنك أجّلت وفاتها عشر سنين.

- لو قمت كممرضة بتأخير وفاة مريض عشر سنين، ألن تقولي إنك أنقذت حياته؟

- لا مجال للمقارنة بين مهنتي وحيلك البغيضة.

- هذا صحيح أنت لست مغرمة بمرضاك. لنرجع إلى العام 1893، كنت إذن في قلب الحريق مع أديل. حدث كل شيء بسرعة في رأسي. عرفت أنها الفرصة التي لن تتكرر. حملت الجسم الخفيف بين يدي وغطيت وجهها بسترتي ثم خرجت وسط النيران. لم أكد أغادر قاعة الحفل حتى انهارت بفعل الحريق. وسط الذعر العام لم يرني أحد وأنا أهرب حاملاً مخلوقة بوجه مغطى. رافقتها إلى حجرة كنت قد أجرتها ليست بعيدة من هناك.

- دعني أحزر، انصب اهتمامك الأول على إزالة المرايا.

- بالطبع. عندما خرجت الفتاة من ذهولها، أعلمتها بلطف وحذر أن وجهها احترق مما أدى إلى تشوهها. لم تتذكر أي شيء تقريباً مما حدث، وصدقتني. توسلت إلي بأن أعطيها مرآة فرفضت بإصرار. ولما توسلت إليَّ كثيراً، توجهت إلى صانع مرايا وطلبت منه أن يصنع مرآة صغيرة تشوه قدر الإمكان وذلك لعمل مقلب لصديق قديم. فعل ذلك بإتقان. أخذت المرآة لأديل ومددتها لها وأنا أقول: «سترين يا آنسة، لقد حذرتك!» لمحت في المرآة وجهاً متورماً فظيعاً لا يشبه وجه إنسان. أطلقت صرخة رعب وأغمي عليها.

- احتفظت بتلك المرآة، أليس كذلك؟

- دفعني حدس مبهم للاحتفاظ بها. عندما استفاقت الفتاة من إغمائها، بادرتني بهذه الكلمات: «سيدي، أنت إنسان كريم، وأنت الوحيد القادر على الإصغاء لرجاء شخص مشوه إلى الأبد. إذا كنت تعزني، خبئني، أخفني إلى الأبد عن أعين الآخرين، حتى لا يعرف الناس الذين عرفوني في فترة تألقي شيئاً عن حالتي ولكي يحتفظوا بذكرى جيدة عني». أجبتها بأنني قبطان وأستعد لعبور المحيط على متن باخرتي. اقترحت عليها مرافقتي. قبّلت يدي بامتنان. كان مشهد الجميلة الجاثمة أمامي وهي تضع شفتيها الجميلتين على كفي اليابس المتجمد غريباً.

- أنت سافل.

- هذا لا يزعجني. عبرنا المحيط ووصلنا إلى نو التي لم تكن معروفة كثيراً كميناء وما زالت كذلك إلى الآن.

- لهذا السبب تحديداً اخترت نو، أليس كذلك؟ كان من الأفضل عدم إثارة الانتباه.

- بل تحديداً بسبب مورت فرونتيير، التي كانت في تلك الفترة عبارة عن جزيرة مهجورة. كنت أترك أديل على متن الباخرة وأذهب للتفاوض بغية شراء الجزيرة. الأمر الذي كان أسهل مما توقعت. ثم رسمت مخططاً لهذا القصر الذي أمرت ببنائه في سرية تامة من طرف رجال المهنة الذين بذلت جهداً لاختيارهم من أماكن بعيدة. أسكنت فيه الفتاة التي

كانت شديدة الامتنان لأنني صممت لها هذا البيت الخالي من كل شيء عاكس.

- هل كانت قد أصبحت عشيقتك في تلك الفترة؟

- كلا، انتظرت وصولنا إلى مورت فرونتيير. أردت أن يحدث ذلك في أفضل ظروف ممكنة. عانت أديل من دوار البحر طوال رحلة العبور وددت أن تكون في صحة جيدة لما يسمى بالمرة الأولى. ذلك لأنها كانت عذراء كهازيل منذ خمس سنوات.

- أنا لا أطلب منك تفاصيل إلى هذا الحد.

- بل أنا الذي يصر على قولها.

- أنت ككل الرجال الذين يعشقون التفاخر بحياتهم الجنسية.

- يجب تأويل ذلك بشكل مختلف. أولاً لم أتمكن قط من الحديث عن ذلك مع أحد لأسباب تفهمينها جيداً، ثم بقدر ما لا يروق لي البوح بمكنون صدري لأي كان، بقدر ما يعجبني عدم الاختصار أمام فتاة جميلة فطنة ومغتاظة. أجل أديل وهازيل كانتا عذراوين. يا لي من رجل محظوظ.

- طالما أثارت اهتمامي تلك الطريقة التي يتكلم بها الذكور عن عذرية الفتاة وكأنها غنيمة. يعلق الصيادون رأس الخنزير البري والأيل المذبوح على حيطانهم: أما أنت فيجب أن تعلق عليها البكارات.

- الإثارة الجنسية بلهاء يا آنسة لكن سنكون أكثر بلاهة إذا حرمنا أنفسنا منها. عندما لحقت بها للمرة الأولى وهي في سريرها، لم تود أن تصدق أنني أشتهيها. هذا غير ممكن. احتجت قائلة يجب أن يكون المخلوق وحشاً ليشتهي فتاة مثلي! بدوري قلت لها إنني تعلمت أن أبحث عمّا وراء ملامحها المشوهة وإني أحب روحها. أجابت، كعادتها في عدم قدرتها على رفع الكلفة بيننا عند مخاطبتي: «إذا كانت روحي هي التي تحب، فاكتف بها». عبارات ربيبتي الحالية نفسها والتكتم نفسه بسبب التشوه دون التطرق إلى النفور الذي تمنعهما رقتهما من التعبير عنه...

- بأنك مثلاً لست فارس أحلامهما.

- نعم. يا له من انتقام بالنسبة لي، أنا الذي لم أكن في حياتي جميلاً وعلى أعتاب الشيخوخة مبكراً. أنت تنعتينني بالسافل لكن لو أن هاتين الفتاتين أبدتا أي اهتمام بي لما اضطررت للجوء لهذه الطريقة غير الأخلاقية.

- هل تلومهما لأنهما تحبان الشباب والجمال؟ سيبدو ذلك شاذاً إذا صدر منك.

- لا مجال للمقارنة فأنا رجل.

- وككل الرجال ستقول لي إنه لا ينبغي على النساء أن يحببن الشباب والجمال. يفترض بنا أن نكون جميلات

وشابات، وإن تعلق الأمر بالحب، نتلقى النصائح بعدم التوقف عند هذا النوع من التفاصيل.

- هذا أمر بيولوجي. ليس على الرجل أن يكون جميلاً لتشتهيه المرأة.

- هل نحن النساء فظات إلى درجة أننا فاقدات الشعور تجاه الجمال؟ قل لي أيها القبطان، هل تؤمن فعلاً بما تقول؟

- ردود فعل أديل وهازيل تؤكد العكس. لكنني أعتقد أن الأمور يجب أن تكون بهذا الشكل. ارتكبت هذه الفضيحة لتصحيح ما بدا لي ظلماً.

- أشعر بالارتياح لسماعك تقول إن ذلك فظيع.

- لا يعني هذا أنني خجل من الأمر. كيف يمكنني أن أشعر بالندم بعدما حصلت على أعظم بهجتين في حياتي.

- وانتحار أديل، ألم يحرمك من النوم؟

- سأفضي لك باعتراف. عذبني انتحارها مدة خمس عشرة سنة، خمس عشرة سنة من الألم واليأس.

- لماذا خمس عشرة سنة فقط؟ ماذا حصل بعد خمس عشرة سنة؟

- من المفروض أن تعرفي. التقيت هازيل.

- يا للعجب! تكرار الجريمة نفسها يشفيك. فسر لي كيف يعقل شذوذ كهذا؟

- أعترف أن في الأمر لغزاً. سأحاول أن أروي لك هذه المعجزة. حدث ذلك في يناير سنة 1918. قادتني الصدفة أو القدر إذا صح التعبير، إلى قضاء يوم عند الكاتب العدل الذي يوثق عقودي والذي يقطن في طانش غير البعيدة عن نو. ما أصابني بالذهول أن هذه القرية قد تحولت إلى مستشفى ريفي أو بالأحرى إلى مأوى للمحتضرين، كانت القرية مليئة بالأجساد المشوهة وأشباه الجثث بعد سلسلة من عمليات القصف الجوي القاتل. صعقت. كنت أعيش في مورت فرونتيير منطوياً على أحزاني. لم تدس قدم جندي جزيرتي وإذا صح التعبير كنت قد تجاهلت الحرب التي كنت أسمع أحياناً ضوضاءها من بعيد. لم أكن قد استوعبت ضخامة وفظاعة ذلك النزاع الذي ظهر لي فجأة في حقيقته البشعة. ثم جاء النقالون الذين وضعوا على الأرض بجانبي، وأنا أحدق مندهشاً في نتائج تلك المجزرة، جثةً مغطاة بقماش. جثة أخرى إلى جانب جثث كثيرة.

- هازيل؟

- ما رأيك؟ ظننت أن هذا ميت آخر عندما قال أحد النقالين «ما زالت على قيد الحياة. قتل والديها على الفور» هكذا علمت أن الأمر يتعلق بفتاة وأنها يتيمة.

- أنت تحب اليتيمات، أليس كذلك؟

- ميزة اليتيمات أنهن بلا نسب. تملّكني فضول مباغت

لمعرفة كيف هو مظهرها وكم تبلغ من العمر. دنوت من الجثة ورفعت القماش. أصبت بصدمة. تعرفين تأثير اكتشاف وجه كهذا. إذا كان مختلفاً عن وجه أديل، فإنه لا يقل عنه شبهاً فيما يخص ذاك الشكل الراقي من اللطف المميز.

- هذا صحيح. التعبير نفسه حسبما لاحظت من خلال الصورة.

- كنت أحس كأني في لوحة لجيروم بوش: البشاعة والوحشية والألم والانحطاط في كل مكان وفجأة جزيرة صغيرة من الطهارة الخالصة. الجمال وسط القذارة. كانت هازيل تنظر حولها بحيرة وتتساءل هل تلك هي جهنم، ثم رمقتني بعينين متسائلتين. هل أنت حي أم ميت؟ سألني صوت رخيم سؤالاً مميزاً وملائماً جداً للظرف. لم أفكر لحظة. حملتها بين يدي واختفيت في عربتي. الموت نفسه لم يكن ليتصرف بشكل مختلف. وبعدها رحلت بكنزي.

- هكذا؟

- نعم، لم يلاحظ أحد. كما تعلمين جريح ناقص أو زائد لا يكترث الممرضون لهذا. على العكس كأننا نقدم لهم خدمة لأن عددهم قليل قياساً بعدد المصابين.

- ولماذا غطيت بالقماش؟ ذلك مخصص للموتى أو الجرحى بالغي الخطورة، مبدئياً.

- لا أدري ربما حتى لا ترى جثّتي والديها. الشيء

الأكيد هو أن الشخص الذي خبأها تحت الغطاء قد قدم لي خدمة كبيرة، ذلك لأن الممرضين لو رأوا وجهها لما نسوها.

- وفي نو، ألم يرك أحد وأنت تنقلها إلى السفينة؟

- كلا، أوقفت عربتي قرب رصيف الميناء الخالي وحملت الجسد كسلة تفاح إلى الباخرة. يظل البحر المعقل الأفضل لإخفاء شخص ما.

- كما هو الأمر في قصر إيف.

- هذا ليس سجناً. يمكن لهازيل أن تذهب إذا أرادت.

- إنه أدهى من السجن. كذبتك سجنت هازيل داخل نفسها فأصبحت تفضل الموت على الذهاب. أتعرف إن ما يثير دهشتي أنك تصادف الحب كما يصادف العقاب طعامه. تتواجد في المكان المناسب في اللحظة الحاسمة، تلاحظ وتتحرى وتعثر على أفضل القطع ثم تنقضّ عليها قبل أن تطير إلى البعيد بغنيمتك.

- هكذا يتصرف الخبراء اليقظون، أما الأغبياء فلا يفكرون إلا في توزيع صيدهم الثمين على العامة وهذا من أكثر الطرق الأكيدة لفقدان الغنيمة، وخاصة رؤيتها وهي تتحول إلى شيء مبتذل.

- هراء. هل لديك انطباع أن قيمة هازيل تضاءلت منذ لقائنا؟ على العكس زادت سعادتها وتتألق عوض الذبول الذي كانت عليه.

- ذلك أنك، ولله الحمد، لست من العامة.

- بمعنى أن هناك حلاً وسطاً بين إظهار ربيبتك للعامة وعدم إظهارها لأحد.

- أتعرفين ما الشيء البغيض لديك؟ ميلك للوعظ. انتظري حتى تعشقين فعلاً وسترين إذا كنت ستتصرفين بهذه المثالية. هذا إذا كنت قادرة على الحب. وأنا أشك في ذلك بسبب عقلية الممرضة الضيقة التي تهيمن عليك.

- من المرجح أنه بسبب عقليتي الضيقة لم أفهم بعد كيف تمحو الجريمة الثانية ذنب الجريمة الأولى.

- أنت تعلمين الآن كيف صادفت هازيل. من الواضح أن القدر أرسلها. لا يمكننا أن نعزو لقاء كهذا إلى الصدفة. وإذا كان القدر قد بعث لي بهذه الفتاة الجديدة فما كان ذلك إلا لكي يعوّضني. كانت أديل بمثابة خطيئتي وأما هازيل فهي خلاصي.

- إنك تهذي! تقوم بتكرار المجازفات نفسها التي مارستها مع أديل، أين هو الخلاص؟

- الخلاص أن هازيل تحبني.

- أتصدق ذلك؟

- متأكد منه.

- ولماذا تحبك؟ ماذا يمكن للمرء أن يحب فيك؟

- وهل يمكننا معرفة أمور كهذه.

- سوف أقول لك ما الذي تغير. منذ ثلاثين سنة كنت رجلاً ناضجاً وعاقلاً قادراً على التمييز بأن أديل لم تكن تحبك. الآن أنت عجوز ضعيف العقل ومتأكد ككل العجزة الخرفين أن الفتيات يرغبن فيك. ما تسميه خلاصاً يسمى ضعف الشيخوخة.

- ما أحبه فيك هو لباقتك.

- هل عليَّ أن أجاملك؟ أنت مضحك. كان لدى أديل أسباب جيدة لعدم حبك، ولدى هازيل أسباب أقوى لأنك لم تتحسن مع الشيخوخة وأنت تعلم ذلك. أثر عليك نقص المرايا بشكل مضحك حتى حسبت أن فتنتك لا تقاوم. أتمنى أن ترى انعكاس صورتك في وجهي لترى إلى أي درجة شخت وشبت وإلى أي مدى تبعث على النفور وليس على الحب.

- صححي معلوماتك. لقد احتفظت وخبأت مرآة كبيرة في غرفتي حتى يمكنني الاطلاع على تدهور حالتي الجسدية.

- ألم تر فيها كم تدهورت، وإلى أي حد تجاوزت العمر الذي يمكن أن تحبك فيه فتيات في عمر الزهور؟

- بلى.

- لقد طمأنتني.

- لن يقوم رجل واثق من نفسه ومن جاذبيته بتدبير حيلة كحيلتي.

- ما دمت نافذ البصيرة إلى هذا الحد، كيف تتصور أن هازيل مغرمة بك؟

- اسأليها بنفسك، بما أنك لا تصدقين كلمة مما أقول.

- أذكرك بأنك منعتني من توجيه أي أسئلة غير ضرورية وهددتني بالقتل.

- أنت نافدة البصيرة. ستجدين حتماً وسيلة لسؤالها دون استجوابها. أتنصّت عليك كل يوم منذ أسابيع وقد اعتدت تقنياتك اللغوية.

- إذا كنت تتنصت علينا، فلا بد أنك سمعت الحديث المقزز الذي أخبرتني فيه عن الليالي التي تأتي فيها إلى حجرتها.

- وأنت واجهت نفاقها، كعذراء مرعوبة، بأجوبة متقنة.

- لم أؤمن بما قلت.

- يا للخسارة. كان ذلك جيداً.

- على كل حال، لو كانت تحبك لما استنجدت بغريبة.

- لم تكن تستنجد بك، بل تتباهى. عندما تشتكي امرأة من الحضور المتواصل لرجل فإن ذلك دوماً لتمييز نفسها.

- على أي حال، هناك شيء مؤكد. إذا كانت هازيل مغرمة بك فإن ذوقها في غاية السوء.

- للمرة الأولى نحن متفقان. كان لأديل ذوق أفضل منها. لو تدرين كم مؤلم أن نثير تقزز المرأة التي نحبها! لو أنها على الأقل، ولعدم حبها لي جسدياً، كانت تكن لي بعض الحنان. كنت أحياناً أتوسل إليها لأن تحبني وأنا أقول لها بأنها على أي حال ستقضي حياتها معي وستكون أكثر سعادة إذا أغرمت بي، وكانت تجيب على ذلك بقولها «لكنني أحاول».

- أفهم لماذا انتحرت التعيسة.

- خلال السنوات العشر التي قضيناها معاً لم أرها تبتسم قطّ. كانت تذهب أحياناً للجلوس على شاطئ البحر تتطلع إلى الأفق لساعات. اسألها لماذا فتقول «أنتظر شيئاً لن يأتي. في داخلي كثير من الرغبات، مع أنني أعرف جيداً أن ليس للفتاة المشوهة شيء تأمله من الحياة، فأنا غير قادرة على منع نفسي من انتظار شيء أو شخص» وتختم بتلك الجملة التي كانت تمزقني. «لماذا هذه الرغبة العارمة في داخلي إذا لم تكن ستفضي إلى شيء».

- كيف تتجرأ على الادعاء أنك كنت تحبها. كانت تقاسي الأمرين على مرأى منك. كان بإمكانك تحريرها بجملتين ولم تفعل ذلك.

- فكري وتخيليني أقول لها الحقيقة! «أديل أنا أكذب عليك منذ أربع سنوات، منذ ثماني سنوات أنت جميلة كالملاك. أنت أكثر جمالاً مما كنت عليه في الثامنة عشرة قبل الحادث الذي خرجت منه سليمة. لم تكوني مشوهة قط حتى ولا لربع ثانية. وإذا أقنعتك بالعكس فذلك لكي لا تفكري في تركي. لا تحقدي عليَّ بسبب ذلك فهي الوسيلة الوحيدة للحصول عليك» لو اعترفت لها بذلك لقتلتني.

- وسيكون ذلك تصرفاً حميداً.

- عليك أن تفهمي أنني بالرغم من كل شيء، لم أكن أريد أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة.

- لا أفهم ذلك. لو تسببت في تعاسة الشخص الذي أحب سأختار الموت.

- معنى هذا أنك قديسة، أما أنا فلست كذلك.

- هل كنت قادراً على أن تكون سعيداً مع علمك بأنك تدمر حياتها؟

- أجل.

- هذا يفوق إدراكي.

- لم تكن قمة السعادة، لكن لم يكن أمراً سيئاً. كنت أعيش مع حبيبتي وأضاجعها...

- تريد القول إنك كنت تغتصبها!

- دائماً كلماتك كبيرة. كلا، حتى لحظة انتحارها، كنت بالأحرى سعيداً.

- وهل ستكون راضياً عن نفسك عندما تنتحر هازيل؟

- لن تنتحر. إنها مختلفة. لم أرها قط تجلس على شاطئ البحر محدقة في الأفق.

- إذا كنت تسمع حديثنا فأنت حتماً تعرف لماذا.

- نعم، قصة الحضور تلك... بالعكس أظن أن شخصيتها مرحة. رضي عني الإله أو الآلهة لا أدري أي منها، حين أعادوا لي الفتاة التي فقدتها، لكن بشكل أفضل. لدى هازيل رصيد من الفرح مهيأ للانطلاق وغالباً ما ينطلق. هي أكثر شهوانية وأقل كآبة من أديل.

- ألا تجد أن من الغريب، انطلاقاً من منطقك، أن ترسل لك هذه الأقدار الإلهية هدية لتكافئك؟ تكافئك على ماذا؟

- أولاً، إذا كانت الألوهية موجودة فلا أدري إن كانت تهتم بالعدالة. ثم يمكننا اعتبار وبشكل لامعقول أن تصرّفي بغيته فعل الخير.

- خيرك أنت، تريد القول.

- وخير الفتيات كذلك. هل تعرفين كثيراً من الرجال الذين كرسوا حياتهم للحب مثلي؟

- يا للسخرية، إنه يقدم نفسه كمِثال.

- بالتأكيد. الحب بالنسبة للكثيرين أمر ثانوي من أمور الحياة، كما الرياضة والإجازة والعروض المسرحية. على الحب أن يكون عملياً وأن ينسجم مع الحياة التي اخترناها. فهو بالنسبة للرجل، المهنة التي يتوقف عليها كل شيء. وبالنسبة للمرأة هو الأطفال. من منظور كهذا لا يمكن للحب أن يكون إلا نزوة عابرة، مرض يُشتهى أن يكون قصير الأجل. من أين جاء هذا السيل من المفاهيم المبتذلة للعلاج النفسي بشأن الطابع الهشّ والعابر للهوى؟ أعتقد أننا إذا رسمنا قدرنا انطلاقاً من حبنا فسيظل هذا الأخير أبدياً.

- أبدياً إلى درجة انتحار المختارة المسكينة.

- أبعد ما يكون عن ذلك. بما أن المختارة ردت إليَّ.

- جميل حبك هذا الذي دمر حياة بريئتين.

- هل فكرت مرة إلى ما كان سيؤول إليهما مصيرهما بدوني؟ سوف أقدم أفضل الأمثلة. كانتا ستتزوجان برجال أغنياء فتنوا بلطفهما وأناقتهما. بعد أن يتعودوا على سحرهما يتجاهلونهما ليعودوا إلى أعمالهم. ستجدان نفسيهما زوجتين وأمَّين مضطرتين إذا احتاجتا إلى شيء من العاطفة للدخول

في لعبة الزنا البرجوازي. تقولين إنني دمرت حياتهما في الوقت الذي أنقذتهما من تلك السوقية التي كانت ستقتلهما ببطء.

- أنقذتهما فعلاً، حتى أن واحدة منهما قتلت نفسها.

- بالتأكيد لا! لو تقرّين أخيراً أن أديل وهازيل شخص واحد، ستدركين أنه لم تحدث وفاة في هذه القضية. رجعت أديل في شكل هازيل وككل شخص يموت ليولد من جديد، فقد تحسّنت. هازيل أكثر حيوية وحبوراً من أديل، كما أنها أكثر تفتحاً للحب.

- لم أسمع قط شيئاً مضحكاً كهذا. طالما وجدت قصص التناسخ سخيفة. لا بل أكثر من ذلك، إذا استخدم الاعتقاد بالتناسخ لتبرير موقفك، فهذا يكون تجاوزاً للحدّ.

- ركزي جيداً. فتاتان في الثامنة عشرة يتيمتان ومتماثلتان في الجمال والأناقة، كلتاهما ضحية لحادث خطير كان من الممكن أن يشوههما. واحدة تسمى أديل لنغلي والأخرى هازيل لونفلير. حتى لفظ اسميهما متشابه.

- ستشرح ذلك للمحكمة. ستكون حججك اللفظية دون شك مقنعة.

- ليس عندي ما أقوله للمحكمة. أنا في نظر القانون لم أقترف شيئاً خاطئاً.

- اغتصاب واعتقال.

- لا اغتصاب ولا اعتقال. لم آت بهما إلى هنا بالقوة ولم أمنعهما من الرحيل.

- تمنعني أنا من الرحيل.

- هذا صحيح. أنت جنحتي الوحيدة وأنت المسؤولة عن ذلك.

- هكذا إذن، أنا السبب في ذلك.

- أجل لأنك تصرّين على عدم رؤية المزايا التي أتحلى بها. بفضلي تعيش أديل - هازيل حياة أميرة رومانسية خلقت من أجلها وليس من أجل تصبح بورجوازية تنجب الأطفال.

- للمرأة خيارات أخرى. ليست هناك أميرات رومانسيات بورجوازيات ينجبن أطفالاً فقط.

- هناك أيضاً الممرضات المتعقِّلات اللاتي ينتهي بهن الأمر إلى العنوسة.

- هناك أيضاً القاتلات. هل تعرف أن النساء يتقنّ القتل جيداً؟

- هذا إذا سنحت لهن الفرصة المناسبة.

فرقع لونكور بإصبعيه، ظهر حارسان من وراء الباب.

- كما ترين يا آنسة، ستجد موهبتك الجديدة صعوبة في التفتح هنا. سنكمل حديثنا الرائع غداً. أتركك لتطالعي «كارميلا» ولن تندمي.

أضاف قبل أن يغيب عن الأنظار.

- ستعود عليك الإقامة هنا بالنفع الكثير. فمن فرط ما تكتشفين من كتب جيدة سيصبح أفقك أقل محدودية.

فرانسواز شافين قرأت «كارميلا». في رمشة عين أنهت تلك القصة القصيرة واستمتعت بها كثيراً. ثم راحت تتساءل لماذا حرص سجّانها على أن تقرأ هذا الكتاب. نامت وهي تفكر أنها لو كانت تملك ككارميلا القدرة على المرور عبر الجدران لوصلت إلى ما ترنو إليه.

في اليوم التالي دأبت على عدم الخوض مع هازيل إلا في أحاديث بريئة جداً. طلبت منها نصائح في القراءة.

- أعطيني كل العناوين الممكنة. لقد بدأت أكتشف قوة الأدب المحرِّرة. لن أتمكن من العيش بدونها أبداً.

- للأدب قوة أكثر من محرِّرة. له قوة مُنْقِذة. لقد أنقذني. لولا الكتب لكنت قد مت منذ مدة طويلة. أنقذ كذلك شهزراد في ألف ليلة وليلة، وسينقذك يا فرانسواز. هذا إن كنت يوماً في حاجة إلى الإنقاذ.

«لو تدرين إلى أي حد أنا بحاجة إلى ذلك.» قالت سجينة الحجرة القرمزية لنفسها.

اقترحت عليها هازيل عدداً كبيراً من العناوين.

- ينبغي لك تدوين هذه العناوين وإلا ستنسينها. قالت للمدلكة.

- هذا غير ضروري، ذاكرتي قوية. أجابت هذه الأخيرة وهي تعلم أن أذناً تتنصت عليهما وتسجل عوضاً عنها.

في ذلك المساء، جاء لونكور مع أربعة من رجاله إلى حجرتها. لم يكن العدد كبيراً مقارنة مع الكم الهائل من الكتب التي يحملونها.

- من حسن الحظ أن ربيبتي لن تقترح عليك المزيد. سكنك ليس كبيراً كفاية.

- كنت أتوقع أن تقول لي لم يبق لديك كثير من الوقت للعيش، ولن تتمكني من قراءة كل هذا أبداً!

- هذا يتوقف عليك.

أمر الحراس الأربعة بالذهاب.

- أترين! لقد خاب ظني كثيراً من حديثك مع هازيل بعد ظهر هذا اليوم.

- لا أدري ما يمكن أن تعيب عليه.

- بالضبط. أحاديثكما الأدبية لا عيب فيها. متحذلقة

تتحدث إلى متحذلقة. أحسست بالملل، بالرغم من أنني زودتك بأفكار جيدة.

- آه، تساءلت الممرضة بشكل ساذج.

- كان بإمكانكما الحديث عن كارميلا.

- لماذا؟

- هل قرأتِها؟

- نعم، وعليه؟

رفع القبطان عينيه إلى السماء.

- قروية بلهاء. لم تفهمي إذن شيئاً.

- وماذا كان عليَّ أن أفهم؟ استغربت فرانسواز ببلاهة.

- تخيبين ظني كثيراً. كان بإمكانك انطلاقاً من كارميلا أن تخوضي في أحاديث سارة مع ربيبتي، في حين أنني لا أرى شيئاً ممتعاً في الأفق ضمن طلبية الكتب الأخيرة. «لاستريه»، هازيل دون شك آخر من يقرأ لهونوري دورفيه «مقدمة للحياة التقية» لسان فرانسوا دوسال. لماذا ليس بينها شيء عن التعليم الديني؟ «عن ألمانيا» لمدام دو ستاييل. أليست هناك كتب أكثر...

- أكثر من ماذا؟

- ألا تفهمين ما أعني؟

- لا.

- أحس بأن حجرة هازيل ستصبح صالوناً للمتحذلقات. كنت تتحدثين معي عن الفترة الزمنية التي ستعيشينها. اعلمي أن ذلك يتوقف بشكل كبير على نوعية حواراتك مع الصغيرة. إذا كان عليَّ أن أقضي شهوراً في سماعك تحللين سان فرانسوا دو سال فسأصاب بالملل.

- عمَّ تريدنا أن نتحدث؟

- المواضيع الجيدة ليست معدومة. يمكنكما أن تتكلما عني مثلاً.

- صحيح ليس هناك موضوع أفضل. قالت وهي تبتسم.

- البارحة شككت في إمكانية حبها لي. كان بإمكانك أن تتطرقي إلى الموضوع.

- هذا ليس من شأني يا سيدي!

- كفاك تمثيلاً. فات الوقت كي تمثلي دور الممرضة المثالية. بالمناسبة لدي لغز. ما وجه الشبه بينك وبين الزئبق؟

- أنت تعرف ذلك.

- كلا، أعني هنا العلاقة الميثولوجية التي تربطكما.

- لا أعرف.

- الزئبق كاسم علم يعني عطارد. وما هو رمز الزئبق؟ شارة الأطباء!

- رمز الطب.

- أجل، مهنتك. الرمز نفسه بالنسبة للأطباء والرسل. أتساءل لماذا.

قال لونكور بسخرية.

- هناك رسائل تعالج.

- وهناك ممرضات مبعوثات يردن إثبات الصلة الميثولوجية إلى حد التعبير عن رسالتهن بواسطة الزئبق. أمر مؤسف أن ذلك لم ينجح.

- هذا تطابق سأستغله.

- ظننت أنك فعلت ذلك عن قصد.

- إنك تفرط في تقديرك لي.

- هذا صحيح. وأنت لا تتوقفين عن تخييب ظني. تبدين ذكية وراقية لكن عندما يعرفك المرء أكثر يلاحظ أنك مجرد فلاّحة غبية. أتركك لتطالعي دون أن آمل شيئاً من تفكيرك. غداً عيد ميلاد هازيل، لا تنسي أن تعايديها.

انتظرت فرانسواز منتصف الليل. عندما أطبق صمت تام على القصر، باشرت عملها.

«سنرى إلى أي حد طاقة الأدب نافذة، محررة ومنقذة.» قالت ضاحكة.

كان أثاث الغرفة القرمزية ثقيلاً وضخماً فلم تقدر الممرضة على تحريك شيء منه سوى الطاولة التي تأكل عليها. وضعتها على طول الحائط. ككل غرف البيت لم تكن هناك إلا نافذة واحدة موجودة على علوٍ يتعذر بلوغه. وضعت فرانسواز كرسياً على الطاولة. ما زال ذلك منخفضاً ولا يتيح لها الوصول إلى الكوة، ولذا لجأت إلى استعمال الكتب كما توقعت. بدأت بالأكبر والسميك لتحصل على قاعدة ثابتة فوق الكرسي. كانت *أعمال* فكتور هوجو *الكاملة* مادة الخيار الأول. أتبعته بمجموعة من الأشعار الباروكية مجاملة بذلك أغريبا دوبينيي. بعد *كليلي* دولا سكوديري جاء دور *موباسان* دون أن تفطن البناءة إلى ضخامة ذلك. ضمت الكتب القديمة بعد ذلك: *سان فرانسوا دو سال*، *تان*، فيون، *مدام دو ستاييل* ومدام دو لافييت. استمتعت بالتفكير بسعادة في هاتين السيدتين لكونهما معاً، *رسائل الراهبة البرتغالية*، هونوري دورفي، فلوبير، سيرفنتس، *لوجونجي مونوغاتاري*، *نيرفال*، روايات *إليسا بيثين لليدي أميليا نورتومب*، *القرويات لباسكال*، سويفت وبودلير - كل ما يهم فتاة مثقفة رقيقة سهلة التأثر تنتمي إلى بداية القرن. كان ينقصها مجلد أو اثنان لبلوغ النافذة. تذكرت أنها تركت «دير بارما» و«كارميلا» في درج الخزانة. أخيراً بلغ برج الكتب العلو المنشود.

قالت في سرها: «الآن إذا تهدمت هذه الكومة فمعنى ذلك أن لا شيء يُرجى من الأدب».

كان التسلق محفوفاً بالمخاطر: ما كانت لتنجح لو لم تكن ساقاها طويلتين وتوازنها طبيعي. ليس هناك مثل رِجْل ثابتة لمواجهة عالم الكتب.

عندما وصلت المتسلقة إلى القمة، جلست على حافة النافذة وتنهدت. خلعت نعلها وكسرت الزجاج بكعب الحذاء الذي أمسكت به كمطرقة. رفعت قطع الزجاج وأخرجت ساقيها.

كانت الأرض بعيدة فخاطبت نفسها قائلة: «لا بأس، إما هذا أو الموت!» توسلت سيد الهروب من طريق السقوط في الفراغ، ادمون دنتيس(*)، وقفزت. أنقذتها خفتها ورشاقتها ومهارة رجليها. وقعت دون أن تصاب بأذى كأنها فعلت ذلك طوال حياتها.

تنفست هواء نقياً ملء رئتيها وهي ثملة بحريتها المسترجعة ثم أعدت خطة العمل.

كمنت تحت نافذة هازيل وبدأت تفكر، لا يبدو لها تسلق الحائط مستحيلاً، غير أن حجرة لونكور ليست بعيدة ولا يمكنها كسر الزجاج دون أن يسمعها.

(*) بطل رواية «كونت دو مونت كريستو» - المترجمة.

لا سأضطر إلى استخدام السلالم الداخلية التي تطقطق درجاتها. حسمت الأمر «من الأفضل أن لا أفكر في ذلك وإلا لن أجد الشجاعة للقيام بشيء لا معقول كهذا».

دلفت من الباب غير المقفل بمفتاح. بدأت في الصعود حابسة أنفاسها وحذاؤها في يدها. توقفت مرعوبة وراحت تفكر: هذا البطء يعيقني ويثقلني. إذا كنت أود أن أزن أقل شيء ممكن، ينبغي أن أجري على أصابع رِجْليَّ بتسلق أربع درجات في المرة الواحدة.

حبست أنفاسها واستعدت للقفز. بعد قليل من الوثب المتقطع وصلت إلى الطابق الأول مع حفظ رائع لطاقتها. طرأت عليها فكرة ممتازة بعدم التوقف والاستمرار في السير على وسادة هوائية حتى غرفة هازيل.

أغلقت الباب خلفها وتنفست الصعداء. انتظرت حتى يعود قلبها إلى نبضه الطبيعي وهي تنظر إلى الفتاة النائمة. كانت الساعة على الجدار تشير إلى الواحدة صباحاً «لم أحتج إلا إلى ستين دقيقة لتنفيذ خطتي. كم من الوقت أحتاج الآن لتحطيم السجن الذي لا يوجد إلا في ذهنها؟»

وضعت يدها على فم هازيل لتكتم صرختها. فتحت الفتاة عينيها، مذعورة وضعت الممرضة إصبعاً على شفتيها إشارة منها إلى ضرورة التحدث همساً.

- كنت أود أن أكون الأولى لتهنئتك بعيد ميلادك. ابتسمت قائلة.

- في الواحدة صباحاً؟ همست الربيبة مذهولة.

- كيف جئت إلى هنا؟

- لم أرجع إلى نو.

روت لها قصة اعتقالها في الحجرة القرمزية في الجهة الأخرى من القصر.

- لا أفهم لماذا سجنك؟

- تلك قصة طويلة. هل تعتقدين أن وصيك نائم؟

- أكثر من أي وقت مضى. أخذ منوماً حتى يكون في كامل نشاطه ليلة عيد ميلادي.

- هذه مصادفة رائعة.

روت لها حكاية أديل لنغلي. لم تقدر هازيل على التلفظ بشيء. هزتها فرانسواز. - أنت دائماً لا تفهمين. قصتكما واحدة! الشيء نفسه تماماً!

- تلك الفتاة انتحرت؟ تمتمت الربيبة ببلاهة.

- أجل وهذا ما ستنتهين إليه أيضاً إذا صممت على رفض الحقيقة.

- أي حقيقة؟

- كيف أي حقيقة؟! حقيقة أن بشاعتك مطابقة لبشاعة نار أديل - نار أديل هذا يناسبها. هذا الحريق الذي لم يشوهها أبداً، لكن استمر في حرقها من الداخل حتى رمت نفسها في الماء لإخماد لهيبه.

- أسمع في أحلامي قنابل تقع في الطريق.

- نعم، على الطريق وليس عليك. لقد نجوت منها.

- والداي، توفيا.

- لم يحظيا بحظك. أجل حظك. لا يمكن لأي كان عند رؤيتك أن يتخيل أنك كنت محاصرة بقصف جوي.

- مَنْ يَرَني يعتقد أنني ولدت معاقة. يا لها من تعزية.

- كلا، أيتها الحمقاء! قلت لك للتو إنك تعيشين قصة أديل لنغلي نفسها. هل أنت مخبولة؟

- لم أر تلك الفتاة في حياتي.

- أنا رأيت صورتها. جميلة إلى حد أننا نحس بطعنة في القلب. لم أعرف إلا شخصاً كان لجماله تأثير عليَّ بهذا الشكل: أنت.

بقيت الفتاة مستلقية بضع ثوان ثم بدأت في التكشير وضرب الأرض برجليها.

- أكرهك يا فرانسواز! ارحلي لا أريد رؤيتك بعد الآن.

- لماذا؟ لأنني أقول لك الحقيقة؟

- لأنك تكذبين! ربما توغلت في الأوهام إلى درجة الاعتقاد أنك تكذبين عن طيبة قلب لإسعاد معاقة مسكينة. ألا ترين كم أنت قاسية؟ هل لديك فكرة عن الجهود التي قمت بها كل هذه السنوات الخمس الأخيرة لتقبّل ما لا يمكن قبوله. وأنت تأتين لإغرائي بذلك لأن فكرة تصديقك بالطبع

قد تستهويني، لأنني ككل كائن بشري أحتفظ في أعماق قلبي بتلك المقدرة الراسخة على الأمل.

- ليست المسألة في أن تأملي بل أن تفتحي عينيك.

- لقد فتحتهما منذ خمس سنوات أمام تلك المرآة المشؤومة. كان ذلك كافياً.

- لنتحدث عن تلك المرآة! اشتراها القبطان منذ ثلاثين سنة من صانع مرايا في بوانت أبيتر. هذه القطعة المخصصة للمزاح مع الأصدقاء استخدمها وصيك لإقناع أديل بتشوّهها، وكرر التجربة معك بالنجاح نفسه.

- لا أصدق كلمة من هذيانك. تقولين ذلك لتشوهي سمعة ولي نعمتي.

- يا له من ولي نعمة محظوظ هذا الذي حصل على عشيقتين من أجمل نساء العالم بواسطة حيلة ماهرة! وقولي لي أين مصلحتي في أن آخذ كل هذه المجازفات للمجيء عندك وتشويه سمعة هذا الرجل المقدس؟

- لا أدري، الشر والخداع وانعدام الشرف. كل ما يمكن أن يخفيه وجه جميل كوجهك.

- لكن ما الذي سأجنيه بالكذب عليك، ولماذا يعتقلني قبطانك اللطيف إذن؟

- يحتفظ بك لي حتى تستمري في علاجي.

- علاجك؟ أنت في أتم صحة. دون شك عندك نقص قليل في المناعة بسبب قلة الهواء والتمارين فقط. الشيء الوحيد الذي يجب علاجك منه هو هذا السم الذي يلقّحك به وصيك.

- لماذا تقولين لي فجأة هذا الكلام المثير؟

- لأنقذك. أنا أكن لك الصداقة. لم أعد قادرة على رؤيتك تعيشين في جحيم كهذا.

- إذا كنت صديقتي اتركيني في حالي.

- لماذا ترفضين تصديقي؟ أتصرين إلى هذا الحد إذن على الاعتقاد بأنك وحش، في حين أكرر لك أنني لم أر في حياتي شخصاً جميلاً إلى هذا الحد.

- لا أريد أن أعلل نفسي بآمال كاذبة، فأنت لست قادرة على تقديم أي برهان على ما تدعينه.

- وأنت ليس لديك أي برهان على عكس ذلك.

- بلى، أتذكر جيداً أول مرة رأيتني فيها. تلقيت صدمة عنيفة لم تنجحي في إخفائها.

- هذا صحيح، أتعرفين لماذا؟ لأنني لم أكن قد رأيت وجهاً مهيباً كوجهك. جمال كهذا نادر ويصدم من يراه.

- كذابة! كذابة! اخرسي. قالت الربيبة التي أجهشت في البكاء.

- لماذا أكذب عليك؟ من مصلحتي في هذه اللحظة أن أهرب إلى نو عن طريق البحر، فأنا سباحة ماهرة وأتمكن من القيام بذلك. أخذت المجازفة غير المعقولة بالدخول إلى السجن الذي هربت منه. أفعلت كل ذلك لأكذب عليك؟

هزت هازيل رأسها بتشنج.

- إذا كنتُ جميلة، فلماذا تأخرتِ في إخباري بذلك؟

- لأن أذني كلماتنا كانت مراقبة. ثمة أنبوب يربط غرفتك بحجرة التدخين يتنصت منه القبطان علينا. فكّرت في الكتابة لك لكنني كنت أفتَّش قبل الدخول إلى هنا، وتُصادَر كل أوراقي وأقلامي. أقول لك هذا الآن لأنهم ينامون، على أي حال أتمنى أن يكونوا نائمين.

مسحت الفتاة دموعها وهي تتنهد.

- أريد أن أصدّقك ولست قادرة.

- يملك وصيّك المرآة الحقيقية الوحيدة في البيت وتوجد في غرفته. يمكننا الذهاب للبحث عنها.

- كلا، لا أريد. آخر مرة رأيت نفسي تألمت كثيراً.

أخذت الممرضة نفساً عميقاً لترغم نفسها على الاحتفاظ بهدوئها.

- صحيح إذن ما أسمعه بأن السجناء لا يرغبون في الحرية. تتصرفين كفابريس ديل دونجو: تحبين سِجنكِ. ليس

هناك قفل على بابك إلا بشاعتك المفترضة. قمت الآن بإعطائك المفتاح وترفضينه.

- سيكون ذلك نفي لكل ما عشته منذ خمس سنوات.

- سأميل إلى الاعتقاد بأنك تتشبثين بهذه السنوات الخمس مع عجوزك! هيا أوقفي هذه المهزلة واتبعيني.

حصل عراك، فرانسواز تجرّ هازيل وهذه الأخيرة تلجأ إلى مقاومتها السلبية للبقاء في السرير.

- حمقاء! أتريدينهم أن يسمعونا.

- لا، أريد تلك المرآة!

أضاءت فرانسواز الضوء وهي شبه مغتاظة. أخذت الفتاة من كتفها وقربتها عشرة سنتمترات من وجهها.

- أنظري إلى وجهك في عيني! لن تري شيئاً كثيراً، لكن ما يكفي لتستنتجي أنه ليس عندك ما يخيف.

ظلت هازيل مبهورة ولم تغضّ طرفها.

- بؤبؤاك واسعان.

- يتمددان عندما يكون هناك شيء ممتع للنظر.

في الوقت الذي ظلت فيه الفتاة تنظر إلى نفسها، كانت فرانسواز تجاوب لونكور في ذهنها.

«معك حق، لم يكن عبثاً أن شارة الطبابة تربط الزئبق

بالطب. أنا ممرضة بقدر ما أنا مُرسلة» ثم أضافت بصوت مرتفع:

- هل رأيت إذن؟

- لا أدري، أرى وجهاً ناعماً عادي الشكل.

- لا يمكنك توقع أكثر من ذلك في عين. تعالي الآن والتزمي الصمت قدر الإمكان.

غادرتا الغرفة ومشتا على رؤوس أصابع الأرجل إلى غرفة العجوز. همست الكبرى للصغرى.

- ينبغي أولاً أن نحد من مقاومته.

دخلتا وأغلقتا الباب وراءهما. كان لونكور يفضّل المنوِّم، ينام بسلام وفمه فاغر ويبدو مسالماً.

فتحت فرانسواز دولاباً وأخذت قميصين. همست لهازيل وهي ترمي لها واحداً.

- دسّي هذا في حنجرته وسأقوم أنا بتقييد معصميه بأكمام القميص الآخر. فتح الرجل العجوز عينيه مذعوراً دون أن يتمكن من الصراخ ذلك لأنه أصبح مكمماً.

- خذي قميصاً آخر واربطي رجليه. أمرت الممرضة.

قبل أن يدرك ما يجري كان قد تسمّر العجوز في سريره مكبَّل القدمين والمعصمين.

- والآن، لنبحث عن هذه المرآة.

عبثاً فتحتا الدواليب وخزانة الملابس وقامتا بتفتيشها. لم تجدا أي مرآة.

- خبأها بالطبع هذا العجوز اللئيم.

قالت الممرضة بتذمر وقد اختارت الهجوم المباشر.

- سيدي العزيز من غير الوارد أن نزيح كمامتك. في المقابل من غير المستحيل أن نلجأ إلى بعض الممارسات البغيضة إذا لم تتعاون معنا على الفور.

أشار لونكور بذقنه إلى المكتبة.

- هل المرآة وراء الكتب؟ هل يجب إزاحتها كلها؟

حرك رأسه بالنفي، وأشار بيديه المربوطتين إلى ضرورة تحريك واحد منها.

- أي واحد؟ هناك مئات من الكتب.

- لنزيح القميص من فمه وسيقول ذلك.

- قطعاً لا! سيستغل الفرصة لينادي حراسه. كلا! لنبحث عن عنوان يذكر بالمرآة.

وجدت هازيل «أليس في بلاد العجائب» و«الجهة الأخرى من المرآة». أزاحتهما دون نتيجة. أوشكت على فقدان الأمل عندما تذكرت الممرضة كلمات القبطان «الرواية

عبارة عن مرآة نطوف بها على طول الطريق» انقضّت على رف ستاندال ودفعت رواية «الأحمر والأسود».

انزلقت المكتبة جانباً لتكشف عن مرآة متحركة واسعة وعالية لدرجة تجعل حصاناً بأكمله يرى نفسه فيها.

- شيء لا يعقل. علّقت الممرضة. في هذا البيت الذي تصادر فيه أدنى مرآة، توجد أكبر مرآة رأيتها في حياتي.

- والأجمل، همست الربيبة قائلة.

- أنت أولاً! قالت الصغرى متوسّلة. أريد أن أتأكد أن هذه المرآة لا تكذب.

نفذت فرانسواز ذلك. عكست المرآة المتحركة صورتها كما هي، تشبه في هيبتها آلهة أثينا.

- حسناً، تفضلي أنت.

كانت الصغرى ترتعش كورقة.

- لا أقدر أنا خائفة جداً.

- لا تقولي إني قمت بكل هذه الجهود بلا طائل.

- ما الذي يرعب أكثر من المرآة؟

كان العجوز ينظر ويستمع بلذة فائقة كما لو أنه يعيش مشهداً انتظره طويلاً.

استرجعت الممرضة دماثتها.

- أنت خائفة جداً من كونك جميلة؟ أفهم ذلك، ولو أنني أقل جمالاً منك. القبح يطمئن، فليس هناك تحد نواجهه، يكفي أن نستسلم لسوء حظنا. أما الجمال فهو وعد. ينبغي أن نتمكن من الوفاء به، وأن نكون على مستوى ذلك، وهذا صعب. منذ أسابيع قليلة كنت تقولين إنه هدية رائعة. لكن ليس كل الناس يرغبون في الحصول على حظوة كهذه أو أن يكونوا من النخبة، أو أن يروا الدهشة والانبهار في عيون الآخرين، أو أن يجسدوا حلم البشرية. أو أن يروا أنفسهم كل صباح جديد في المرآة لكي يلاحظوا ما خلّفته الأيام عليهم من أضرار. الدمامة طويلة العمر ومقدّر لها أن تدوم. ثم تجعل منك ضحية حتى يستهويك أن تكون شهيدها.

- أكرهه. احتجت الربيبة.

- ربما تفضلين أن تكوني لا جميلة ولا قبيحة، شبيهة بالعامة لا شأن لها. بحجة أن الحرية تستدعي أن نكون عاديين. أنا إذن آسفة لأجلك. أنت واهمة. يجب أن تتعودي على هذه الحقيقة المؤسفة. أنت جميلة إلى درجة أن هاوياً خبيراً أراد سرقتك من نظرتك نفسها ليتمتع وحده بالمشهد. نجح في ذلك لخمس سنوات. مع الأسف يا قبطاني العزيز إن لأجمل الأشياء نهاية، وأسوأ الوساوس تتحقق. يجب أن تقتسم الكنز مع عديد من الناس بما في ذلك الكنز نفسه -

الصدقة المنظمة. . . هازيل بمناسبة عيد ميلادك أمنحك لعينيك.

أمسكت فرانسواز الفتاة من كتفها ودفعت بها أمام المرآة. جُذِبَت الفتاة مثل كوكبٍ في مدار المرآةِ وسرعان ما غدت أسيرتها. لقد شاهدت صورتها.

كانت بقميص نومها الأبيض وشعرها الطويل الأشعث أشبه بجنيّة، وجهها من تلك الوجوه التي لا تتكرر إلا مرة أو مرتين في الجيل الواحد فتأسر لبّ الإنسان إلى حد أن تنسيه شقاءَه. اكتشاف المرء لجمال كهذا يجعله ينسى آلامه ليصاب في الحال بمرض أخطر حتى أن الموت نفسه لا يساعد على تحمله. من يلمحه هو ناجٍ أو مفقود.

أما ما قد تستشعره تلك التي اكتشفت نفسها على مثل هذه الصورة فلن يختبره أحدٌ سواها.

عمدت هازيل إلى إخفاء وجهها بيديها وهي تتمتم.

- كنت على حق، فما هو المرعبُ أكثر من المرآة؟

غابت عن الوعي. أسرعت فرانسواز لإنعاشها.

- هدئي روعك، يمكنك أن تغيبي عن الوعي عندما ننجو من الخطر.

- ما يحدث لي مذهل جداً. أحس كأني لو تلقيت ضربة على رأسي.

- هي بالفعل صدمة قوية.

- أكثر مما تتخيلين. أتذكر نفسي قبل القصف. لم أكن. . . هكذا، ماذا حصل؟

- حصل أنك خرجت من طور المراهقة.

ظلت الفتاة جامدة لا تصدِّق عينيها. راحت الممرضة تفكر بصوت مرتفع.

- الآن يجب أن نناقش خطة العمل. من الأفضل ألاّ ننتظر حتى يستيقظ الحراس. أفضل شيء هو أن نجد سلاحاً. اللعنة أين يمكن أن يكون هناك سلاح في هذا البيت؟

زمجر لونكور من تحت كمامته. أشار إلى المرآة المتحركة بذقنه.

- ماذا تحاول أن تقول لي؟ سألت الآنسة شافين «إن المرآة سلاح!»

أشار برأسه نافياً واستمر بالإشارة إلى المرآة. أدارتها فرانسواز. مسدس كان معلقاً عليها. استولت عليه وتحققت إذا كان مذخراً.

- فكرة جيدة أن ترتب الأدوات الخطيرة بعضها مع بعض. ما دمت تكشف لنا عن مخابئك بهذه البساطة فمعناه أنك تريد التعاون معنا. سأنزع الكمامة إذاً. صرخة واحدة وثق أنني سأطلق عليك النار.

أزالت القميص من فمه، تنفس وقال: لا عليك، أنا في صفك.

- قل بالأحرى إنك رهينتنا. اليوم الذي أثق بك فيه لن يرى النور. سجنتني وهددتني بالموت...

- حينها كان لدي ما أخاف فقدانه. لكن ليس الآن.

- ما زالت هازيل تحت سقفك.

- أجل، لكنها تعرف، لقد فقدتها.

- ستغريك ربما إمكانية الاحتفاظ بها قسراً.

- كلا، على عكس ما تتصورين، أنا لا أحب الإكراه. احتفظت بهازيل خلال السنوات الخمس الرائعة المنصرمة بالحيلة. لا يغريني الحصول عليها عن طريق العنف. أنا إنسان رقيق.

- ويتباهى بعد كل هذا.

- بالطبع أنت حتماً لا تعرفين ما يعني رجل لطيف يا آنستي المسكينة.

- ما قمت به لا يبدو لي علامة على لطف كبير.

- لا تهم الخطايا التي اقترفها ما دمت أكفّر عنها. أملك ثروة ضخمة سأمنحها لهازيل حتى آخر قرش.

- لا أظن أن مالَكَ قادر على محوِ سرقة خمس سنوات من حياتها.

- لا تكوني مضحكة بأفكارك السطحية. أولاً، هي لم تكن تعسة كما تتصورين، ثم إن الحصول على مصدر ثراء كهذا بالنسبة ليتيمة معدمة، دون الاضطرار إلى الزواج بأي كان، هو أمرٌ لا بأس به.

- هل تعتبرها عاهرة أم ماذا؟

- بالعكس، لم أحب أي إنسان في العالم بهذا القدر. هي تعرف ذلك ولهذا ستقبل.

- عليها أن تنتقم قبل كل شيء. تباً لك ماذا تنتظرين؟ تابعت قائلة وهي تلتفت إلى الفتاة. تظلين هنا ساكنة غائبة مع أنك فهمت أخيراً أي نوع من الخداع كنت ضحيته. أتتذكرين عندما قلت لي بأن القبطان يخفي شيئاً ما، بأن لديه سراً لابد أنه خطير؟ وجهك إذن هو السر الذي كان من المفترض أن يثير جماله الفتنة في العالم. خمس سنوات وأنت تختنقين من الاشمئزاز من نفسك. المجرم أمامك، مقيّد الرجلين واليدين.

- ماذا تريدينني أن أفعل؟ تمتمت الربيبة التي ظلت جالسة على الأرض ساكنة.

- اضربيه، اصفعيه، اشتميه، ابصقي عليه.

- وما نفع ذلك؟

- سيريحك!

- لا، لن يريحني.

- إنّك تخيبين ظني. هل تسمحين لي أن أحل في مكانك؟ أود كثيراً أن أهزه بقوة، وأبيّن له عيوبه، هذا الوغد العجوز المثير للاشمئزاز.

أيقظت هذه الكلمات الفتاة التي وقفت وحالت بين فرانسواز ولونكور متوسلةً.

- اتركيه في حاله.

- أتشفقين عليه.

- أنا مدينة له بكل شيء.

لبثت الممرضة مشدوهة، ثم أردفت وهي في قمة الغضب والمسدس مصوب إلى رأس العجوز.

- أنا مذهولة. هل أنت غبية؟

- لن أكون شيئاً من دونه.

تمتمت الربيبة بتردد.

- تقولين ذلك بسبب الثروة التي سيمنحك إياها؟ هذا أقل تعويض لو أردت رأيي.

- كلا، أفكر في أشياء لا تقدر بثمن أعطاني إياها.

- أجل: السجن، الاغتصاب اليومي، الخِسَّة، في الواقع كان يعجبك ذلك؟ كان العجوز القذر محقاً إذاً.

هزت الفتاة رأسها باستنكار.

- أنت لم تفهمي شيئاً. لم يكن الأمر كذلك.

- كيف يا هازيل، أنت نفسك قلتِ لي إن ذلك يصيبك بالاشمئزاز ويجعلك مريضة، وإنك تخشين مجيئه كل ليلة إلى فراشك.

- هذا صحيح. لكن ليس الأمر بهذه البساطة.

أخذت فرانسواز كرسياً وجلست كما لو أنها انهارت بسبب ما تسمعه دون أن تتوقف عن تصويب المسدس إلى رأس لونكور.

- فسّري لي إذاً تعقيدات مزاجك السخيفة.

- الآن فقط تعرفت على وجهي. برأيك أنت هذا سبب كي أحقد عليه. وبالفعل أحقد عليه لأنني كنت أتعذب لاعتقادي بأنني قبيحة. بالرغم من ذلك فأنا مدينة له بهذا الوجه.

- ما الذي تقولينه؟

- كما قلت لك. لم أتعرف إلى نفسي تماماً. . .كنت جميلة حقاً لكنني الآن فاتنة الجمال. تعللين ذلك بنهاية طور المراهقة. لا يبدو لي هذا كافياً. كنت حينها في الثامنة عشرة تقريباً. أنا على يقين أنه هو الذي جعلني على هذه الصورة.

- هل أخضعك لعملية جراحية؟ قالت الممرضة بازدراء.

- كلا، أحبني، أحبني حباً جمّاً.

- لقد ازددت طولاً ونحافة، لا دخل له بذلك.

- بالنسبة للجسم، أنتِ على حق. بالنسبة للوجه الأمر ليس كذلك. لو لم أحظَ بحب كبير لما اكتست ملامحي بمثل هذا الإشراق وهذه الرقة.

- أقول بالأحرى لو أنك لم تسجني خمس سنوات مع عجوز خرف لما نطقت بهذه الحماقات. خذي شخصاً قبيحاً، اغمريه بالحب وسترين بطلان نظريتك.

- أنا لا أنفي مزاياَي، لكن هو من كشف جمالها. كان وجود حب كحبه ضرورياً ليظهر هذا التناسق.

- توقفي، لا أريد سماع المزيد من هذه الحماقات.

- «أنا لا أطلب إلا سماع المزيد». تدخل لونكور قائلاً بابتسامة متأثرة.

- انظري إليه. أصابه المديح بالغرور. قالت فرانسواز ثائرة. لقد طفح الكيل. يعتقلها خمس سنوات وتشكره.

- لو سمحت أن أبدي رأيي... تابع قائلاً.

- اصمت وإلاّ أطلقت عليك النار.

- لا، اتركيه يتكلم. قالت الفتاة. فتابع قائلاً:

- شكراً يا بنيتي. إذا أمكن لي أن أقول رأيي. أنتما الاثنتين على حق وعلى خطأ. هازيل على خطأ. عندما

قابلتها منذ خمس سنوات كانت آنذاك جميلة لدرجة تثير إعجاب العالم كله. أنا لم أصب بصعقة الحب لأخطفها من دون سبب. هازيل محقة أيضاً. جمالها أكثر إشراقاً اليوم مما كان عليه قبل خمس سنوات. فرانسواز محقة، فللبلوغ فضلٌ كبير في ذلك. وفرانسواز مخطئة، إذ إن حبي قد ساهم في تظهير إشراقه.

- لم تحبك هازيل إذاً بما فيه الكفاية لأنك بشع وعجوز.

- لا يمكننا الحصول على كل شيء، أجد أنه لمذهلٌ حقاً أن تكنّ لي بعض المودّة.

- كان ذلك أكثر من مودّة.

- اسكتي يا هازيل وإلا صفعتك.

- لماذا تفعلين هذا يا فرانسواز؟ لماذا تتصرفين هكذا يا فرانسواز؟

- لماذا؟ ماذا تظنين؟ أصل إلى بيت مجهول وأجد فتاة سجينة تشكو من العنف الذي يمارسه عليها سجان عجوز وهي بلا حول أو قوة وتنظر إليَّ بعينين متوسلتين مردّدةً أنني صديقتها الوحيدة، وأنا القروية الساذجة، أصبح قلقة وأعرض حياتي للخطر لمساعدة هذه الضحية المسكينة، أشتري العديد من موازين الحرارة حتى اتهم باستخدامها لتسميم شخص ما. أسجن بدوري وأهرب مجازفة بحياتي. وبدل أن أنجو بنفسي

سابحةً أعود لمواجهة الخطر وإنقاذها ولأكشف لها الكذبة الفظيعة التي جعلها وصيُّها تعيشها والنتيجة أن الشابة البلهاء تقول للعجوز الوغد بصوتها الناعم جداً «أشعر نحوك بأكثر من المودّة!» هل تسخرين مني؟

- اهدئي وافهميني. . .

- أفهم أنني أعكّر صفو اجتماعكما. في الواقع أنا أزعجكما. هل رأى أحد من قبل عاشقين مناسبين واحدهما للآخر إلى هذه الدرجة؟ كنت مسرورة للعب دور الضحية وهو مبتهج لتقمص دور الجلاد في هذا السن. وأنا، هل يمكن أن أعرف ما كان مفترضاً بي القيام به في مسرحيتكما؟ نعم، كانت تنقصكما المُثيرات اللازمة لمتعتكما المنحرفة. مشاهد بريء يضاعف استنكاره رغبتكما وشهوتكما. لتأدية هذا الدور ليس هناك أفضل من ممرضة ساذجة لم تخرج قط من مسقط رأسها. لم يسعفكما الحظ، فقد وقعتما على فتاة مزاجية. فمن سيمنعني من قتلكما؟

- إنها مجنونة. قال لونكور.

- حذار، إصبعي على الزناد!

- لا تقتليه يا فرانسواز. أنت لم تفهميني جيداً.

- ستكررين قولك إنني أغبى من أن أستوعب دقة ما يدور هنا.

- يا صديقتي العزيزة، يا أختي. . .

- لا تحاولي هذا الأسلوب معي مرةً ثانية! لن أصدقك بعد الآن.

جثت الفتاة على ركبتيها وبدأت تتكلم وهي ترتعش.

- فرانسواز! قولي إني غبية، اقتليني إذا أردت، لكن أرجوك كفي عن الاعتقاد بأنني حاولت خداعك والسخرية منك. أنت أحبّ الناس إليّ في هذا العالم.

- كلا، هو من تحبينه أكثر.

- كيف يمكنك أن تقارني مشاعر مختلفة إلى هذا الحد؟ هو والدي وأنت أختي.

- يا له من أب عجيب.

- نعم أب عجيب، أنا أول من يؤكد أنه تصرف معي بشكل سيّئ. أخطاؤه لا تُحصى ولا تغتفر، مع ذلك هناك شيء لا يمكنني أن أشك فيه، هو أنه يحبني.

- يا مَرحى.

- أجل، يا مرحى بشخص يحبّ بهذه القوة. أحسست بأنني محبوبة جداً في هذا البيت.

- أي رجل قد يحبّ امرأة جميلة مثلك بجنون.

- هذا ليس صحيحاً، قلة هم الرجال القادرون على حب كبير كهذا.

- ما أدراك؟ لم تكن لك أي تجربة قبل المجيء إلى هنا.

- بلى لديّ خبرة بهذا الشأن. لا يحتاج المرء إلى علمٍ واسعٍ وخبرة طويلة لكي يدرك أن الحبّ ليس إحدى أبرزَ مزايا البشر.

- قولي بالأحرى إنك بحاجة إلى إقناع نفسك. بالنسبة لك هي الوسيلة الوحيدة لتحمّل فكرة السنوات الخمس الفظيعة.

- عشت لحظات جميلة هنا. لا أندم على شيء، لا على لقاء القبطان ولا على إنقاذك لي. جئت في الوقت المناسب. السنوات الخمس في مورت فرونتيير ملكتني كنوزاً كانت لتستحيل مُرّاً لو لم تأتي للعب هذا الدور المصيري.

- لا أفهمك. لو عانيت أنا ما قاسيته أنتِ، لقتلت لونكور.

- يجب أن نتقبل فكرة عدم استيعاب بعض الأمور لدى أصدقائنا، سبق وأن قلت لك ذلك. أنا كذلك لا أفهمك دوماً، ولا يمنعني ذلك من أن أحبك. سأكون شاكرة لك طوال حياتي لأنك فتحت عيني على بُهتان سجني. لو مكثت في هذا النفور من نفسي لانتهى بي الأمر كأديل.

- أخيراً أسمع كلاماً معقولاً. أترين أن لديك أسباباً جيدة لكره هذا العجوز الوغد.

- من دون شك.

طغى على وجه الفتاة الجميل تعبير غريب. نهضت والتفت من حول الممرضة دانيةً من القبطان وهي تنظر إليه بقسوة مفاجئة. بدأت حديثاً ثنائياً حاداً إلى درجة أن فرانسواز تساءلت إذا لم يكونا قد نسيا وجودها.

_ أجل، أحقد عليك. قالت الصغيرة للونكور. ليس لأنك سجنتني أو لأنك أقنعتني ببشاعتي، بل بسبب أديل.

- علامَ يمكن أن تلوميني، أنت لم تعرفيها.

- لأنك أحببتها. أنا لست كفرانسواز. تثير لدي جرائم حبك نوعاً من الإعجاب. يمكنني أن أفهم رجلاً يحب إلى حد النذالة، إلى حد تحطيم من يُحب. في المقابل، التفكير في أنني لست الأولى يثير غيظي. أصبحت أعمالك السيئة تبدو عادية. كانت تستمد أهميتها من طابعها الاستثنائي، من تفردها. إذا لم أكن أنا إلا نسخة مكررة، فعندها بلى أحقد عليك وأكرهك.

- هل يعقل أن تحسّي بالغيرة؟ يا له من برهان حب مفاجئ.

- أنت لا تفهمني، أنا أغار عليها. إذا كنت قد أحببتها إلى حد تدبير مؤامرة كتلك التي دبّرتها فكيف يمكن أن تحب واحدة أخرى بعد ذلك؟ أليس تشويهاً لهواكَ أن تجعل له تتمّة؟

- لا أوافق على هذا الرأي، لا يصلح الأموات إلا لحب الأحياء أكثر! تعذبت خلال الخمس عشرة سنة التي تلت انتحارها، ثم التقيت بك. منذ ذلك الحين أصبحت أتكلم عنها في صيغة الحاضر. ألا تفهمين أنك أنت وهي شخص واحد.

- تقول ذلك بسبب الشبه القليل بين اسمينا. يا للسخافة.

- اسماكما هما الأقل إثارة من بين نقاط تشابهكما. عشت طويلاً وسافرت كثيراً، صادفت عديداً من الناس وعشقتُ كثيراً. وأظن أن خبرتي في الحياة علمتني أن أثمّن النُّدرة. إن أقلّ ما يشترك به الناس، نساءً ورجالاً، هو نعمة الجمال. لم ألتقِ سوى فتاتين تعكسان هذه النعمة. أعرف أنهما شخص واحد ذلك لأنني عرفتهما وأحببت كلتيهما.

- لم تحبني كل هذه السنوات إلا لشبهي بالأخرى؟ أكره هذه الفكرة.

- هذا يعني أنني أحبك قبل مولدك. عندما توفيت أديل كنت في الثالثة، سن الذكريات الأولى. يروق لي أن أعتقد التفكير أنك ورثت ذاكرتها.

- أجد هذا الافتراض بغيضاً.

- هذا ليس افتراضاً، إنه يقين. لماذا تكرهين التجول في

الجزيرة؟ لماذا تشعرين قرب الشاطئ بالحزن؟ لأنك تتذكرين أنك انتحرت منذ عشرين سنة.

- اصمت وإلا سأفقد صوابي.

- أخطأت عندما قلت إنك ازددت جمالاً في خمس سنوات. بدأ تكوّنك قبل ولادتك، سنة 1893، عندما التقيت بأديل. نلتِ كل الحب الذي غمرت به تجسُّدَك السابق، وأنت تحملين ثماره، ذاك أنك أفضل منه. أنت أكثر تفتحاً للحياة. كان لديها نقص، يأس، وعدم رضا مشؤوم لم ترثيه عنها. لذلك انتحرت. أنت أكثر مرحاً من أن تقتلي نفسك.

- أتظن ذلك؟ قالت الربيبة غاضبة وبحركة عنيفة جداً انتزعت المسدس من يد فرانسواز وصوبته إلى صدغها.

هتف الرجل العجوز والممرضة بصوت واحد «هازيل!»

- إذا اقتربتما مني سأطلق النار! قالت وفي عينيها تصميم أكيد.

- عجوز أبله! صرخت الممرضة قائلة. انظر إلى ما تسميه نِعَمَ حبك. قريباً سيعذبك ضميرك بسبب مِيْتتين.

- هازيل! أرجوك يا حبيبتي لا تفعلي ذلك.

- إذا كنت، كما تؤكد، تجسيداً لأديل فهذا يعني أن ذلك خير ما قد أفعله!

- كلا يا هازيل. قالت الممرضة. أنت على أعتاب حياة

جديدة ومثيرة. سترين كم هو مثير أن تكوني جميلة. ستكونين ثرية وحرة. كل شيء سيكون ممكناً بالنسبة لك.

- الأمر لا يعنيني.

- أنت مخطئة بالتخلي عن شيء لا تعرفينه.

- هذه الأمور لا تثير اهتمامي. عشت هنا أفضل حياة. الآن، أنا أديل، كيف يمكنني أن أفكر في شيء آخر غير موتي؟

- موتي أنا الذي يجب أن تفكري فيه. قال العجوز.

- هذا حق، فإذا كان لأحدٍ أن يُقتل في هذه الحال فلا بدّ أن يكون هو، لماذا تنتحرين؟ منذ متى يُقتل الضحايا وينجو المذنبون؟ قالت الممرضة بحدة.

- لن أقدر على قتله. ذلك يفوق طاقتي واحتمالي. قالت الربية متلعثمة وهي متشبّثة بالمسدس.

- أعطني السلاح، سأتكفل أنا بذلك.

- يا آنسة هذه قضية بيني وبينها. هازيل، لست ضد فكرة الانتحار، لكن انتحارك أنت لا مبرر له. سيضاعف مرتين فظاعة انتحار أديل التي على الأقل كان لديها عذر كونها يائسة.

- أنا يائسة.

- لا سبب لديك لأن تكوني كذلك. هذا يوم عيد ميلادك، كما أنك نلتِ الجمال والثروة والحرية هديةً.

- كفى! إنك تصيبني بالغثيان! كيف يمكنني أن أنسى ما عشته هنا؟ كيف يمكنني أن أحمل عبئاً كهذا طوال حياتي.

- من يتكلم عن عبء. من يتكلم عن النسيان؟ ستغادرين هذا المكان مزودة بحب رائع يبقى معك إلى الأبد. فأيّ ثراء أكبر من هذا.

- هذه القصة عبارة عن سجن سأحمله معي. لن تتوقف ذكراك عن ملاحقتي. لتحريري من ذلك يجب أن يتحطّم شيء ما.

- نعم، لكن ليس جمجمتك. ما يجب أن يكسر هو الحلقة. إذا انتحرت ستعززينها عوض تحطيمها. صديقتك محقة، إذا كنت فعلاً تشعرين بضرورة قتل شخص ما بغية التحرر فاقتليني أنا.

- أتريدني أن أقتلك؟ أتريد ذلك فعلاً؟

- ما أريده فعلاً هو ألا تقتلي نفسك. بعد موت أديل قضيت خمس عشرة سنة أكابد الجحيم، ثم التقيت بك وظننت أنني نجوت. ذلك لا يمنع أن أكون رجلاً معذباً، هل تفهمين؟ إذا اقتضى الأمر أن تقتلي نفسك أنت أيضاً بسببي، فكم قرناً ينبغي أن أعيش حاملاً هذا الجرح الهائل؟ إذا كنت تشعرين نحوي بقليل من الحنان فلا تقتلي نفسك. قتلي سيكون حلاً ممتازاً.

كان لصوت العجوز تأثير المخدّر. برقّة أمسك بمعصم

الفتاة وأداره نحو صدغه. تنفست الممرضة الصعداء.

- أنا ملكك، يا هازيل. إذا ضغطت على الزناد فسيكون ذلك عدلاً بالنسبة لك ولي. تكونين قد انتقمت لأديل وانتقمت لخمس سنوات من السجن. بالنسبة لي سيكون برهاناً على أنك اهتديت إلى الرغبة في الحياة وأنني لم أكرس حياتي لأقتل حبي الوحيد مرتين.

عقب ذلك صمت طويل. كانت فرانسواز تنظر إلى المشهد بذهول. لم تكن الربيبة يوماً أكثر جمالاً مما كانت في تلك اللحظة. المسدس على صدغ لونكور والعينان ثملتان بفكرة القتل. كان القبطان قد تغير لشدة ما أشرق وجهه المتغضن بجنون الحب. وبلمح البصر ذهلت الممرضة لهذا القدر من الحب. كان قد ترك معصم الفتاة وظل السلاح فقط يربط أحدهما بالآخر. بدرت منه حركة غريبة. وضع شفتيه على ماسورة المسدس ليس لوضعه في فمه كما تفعل ضحية ما لتسهيل المهمة على قاتلها بل ليقبّله قبلة تفيض حباً كما لو أن الشفتين المعدنيتين هما شفتا حبيبته.

- ومع ذلك أنا لا أنصحك بقتلي. خلص أخيراً إلى القول.

- هكذا إذاً، لقد خانته شجاعته. قالت الممرضة ثائرة.

- لو تأخذين مصالحي بعين الاعتبار فسيكون أفضل ألف مرة أن أموت. ستذهبين: حياتي ستتوقف. لكن وبالتفكير في

ذلك إن كنت قد رجوتك لتطلقي النار فلأنني لست سوى رجل أناني. أطلب لنفسي الراحة الأبدية ولك تحقيقات الشرطة. لا أريد أن تكوني مطلوبة من العدالة.

- لا أبالي بالشرطة. قالت الفتاة بصوت محب.

- أنت مخطئة. الطمأنينة ليس لها ثمن. كم أتمنى أن أراك سعيدة.

- هذه أكاذيب. ستعفين عنه وسيجد ضحية ثالثة يقول لها إنها تجسيد لك.

صرخت الممرضة.

- إذا كنت تعتقدين أن ما تقوله هو الحقيقة، اقتليني.

- لا أعتقد، أظن أنها لا تفهم ما تقوله.

- أريد قبل كل شيء أن تتحرري من ذكراي. لو قتلتني فسأكون حاضراً في ذاكرتك أكثر من أي وقت مضى. لقد حدث أن قتلت أشخاصاً في حياتي الطويلة. أصدقاء الماضي الذين أذكرهم بشكل أفضل هم الذين ولأسباب مختلفة قتلتهم. تعتقدين أنك ستتحررين مني بقتلي، في حين أن ذلك سيجعلني ماثلاً في ذاكرتك إلى الأبد.

- ذاكرتي أنت. أنت ذاكرتي فلست بحاجة إلى قتلك لكي أحملها إلى الأبد.

- أجل، لكن ما زال لديك خيار إما ذكرى فائقة الوصف

أو ندم معذب. سيجعلك الأول قوية إلى الأبد وسيسمم الثاني حياتك. أنا أعني ما أقول.

- ماذا سيحدث لك إذا لم أقتلك؟

- لا تشغلي بالك بي.

- وما مصيري من دونك؟

- أرسل لنا القدر شخصاً رائعاً لحمايتك تحبينه ويحبك. ستكون أختك الكبرى، عاقلة على قدر جنونك، قوية على قدر ضعفك، شجاعة، وهذا برأيي أجمل صفاتها. إنها مليئة بالكره تجاه الطامعين فيك في المستقبل.

- وتجاه السابقين أيضاً. قالت الممرضة بصوت تهكمي.

- أترين؟ إنها رائعة.

- هل ستغادر مورت فرونتيير؟

- كلا، هنا كل شيء يذكرني بك. سأجلس مقابل البحر وسأفكر فيك. لم يبق لي إلا أن أعبر حدود الموت.

لم تتمكن الفتاة من إلقاء السلاح كما لو أن ذلك الامتداد المعدني هو آخر آصرة تربطها بالقبطان.

- ما العمل؟ ما العمل؟ تساءلت وهي تهز شعرها الجميل.

- ثقي بي. تطلب الأمر مني سبعاً وسبعين سنة لأكون كريماً لكنني الآن كذلك.

أمسك بمعصمها ونزع المسدس الذي أعطاه للممرضة كدليل على صدقه، ثم غمر يديها المجردتين من السلاح بالقبل.

ثمّ أعطى مغلفاً لفرانسواز شافين.

- ستجدين فيه وصيتي وعنوان موثق عقودي. أعتمد عليك لإنهاء كل الإجراءات، وأشكر كوكب عطارد لأنه وضعك في طريقي.

التفت إلى ربيبته وأعطاها مغلفاً هي الأخرى.

- هذا لك لتقرأيه عندما تصلين اليابسة.

ضمها بين ذراعيه. احتضن وجه حبيبته بجماع راحتيه والتهمه بنظراته. قرّبت شفتيها من شفتيه.

ركبت الصديقتان السفينة الصغيرة. كانت الصغرى شاحبة الوجه تتأمل الجزيرة التي تبعد والكبرى متألقة تنظر إلى الشاطئ الذي يقترب.

ذهبت فرانسواز فور وصولهما إلى تانش لمقابلة موثق عقود القبطان.

جلست الربيبة قبالة البحر وفتحت المغلّف. كان فيه رسالة قصيرة:

«حبيبتي هازيل

كل رغبة تذكّر بشيء. كل محبوبة تجسيد لراحلة عطشى. أنت الميتة وأنت الحية.

إليك أنت،

عمير لونكور.»

- أنت ثرية جداً. قالت فرانسواز عند رجوعها من تانش.

- كلا، نحن ثريتان، أما زالت أغلى أمنياتك ركوب باخرة مبحرة إلى ما وراء المحيط؟

- أكثر من أي وقت مضى.

- أقترح نيويورك.

في الطريق إلى شيربور قالت الممرضة السابقة:

- لا أعتقد أن أديل كانت تريد الموت فعلاً. رمت بنفسها في الماء مقابل الشاطئ وليس مقابل المحيط. من المؤكد أنها لم تجد القوة الكافية للسباحة حتى نو. أنا على يقين أنها كانت تريد أن تعيش.

قبل وقت قصير من رحيلهما استلمت رسالة أنبأتها

بانتحار لونكور. كانت هناك ملاحظة صغيرة موجهة إليها من القبطان.

«آنستي العزيزة،

أعتمد عليك كي لا تعرف هازيل شيئاً عن موتي.

عمير لونكور

مورت فرونتيير، 31 مارس 1923»

- أسأت الظن به. كان فعلاً كريماً. قالت فرانسواز.

على متن الباخرة التي تعبر الأطلسي من شيربور إلى نيويورك، اتفق الجميع على أن الآنسة لونفلير والآنسة شافين تتقاسمان لقب أجمل مسافرتين.

اشتركتا أيضاً في أجمل كابينة فيها مرآة كبيرة. كانت هازيل تنظر إليها لساعات متواصلة وفي يدها رسالة القبطان وفي عينيها دهشة بادية.

- نرجسية! قالت فرانسواز مبتسمة.

- هذا صحيح. صرت أنتمي إلى النخبة. أجابت هازيل.

كانت نيويورك مدينة يطيب العيش فيها لمن يملك المال. اشترت الصديقتان شقة رائعة مقابل سنترال بارك.

حصلت أشياء كثيرة لكل منهما، غير أنهما لم تفترقا البتة.

كلمة الكاتبة

تتضمّن هذه الرواية خاتمتين. لم أقصد ذلك عمداً. حدث شيء غير عادي عند وصولي إلى هذه الخاتمة السعيدة الأولى. شعرت برغبة قاهرة لاقتراح خاتمة أخرى. عندما تم ذلك، لم أتمكن من الاختيار بين الخاتمتين لفرط تأثّري بكلّ منهما ولتكشف كلّ منهما عن منطق للشخصيات مثير بقدر ما هو صارم. وعليه، قررت الاحتفاظ بالاثنتين معاً. أحرص على الإشارة إلى أنه لا ينبغي ربط ذلك بأي حال من الأحوال بتأثير العوالم المتفاعلة التي تعيث فساداً في وقتنا الحالي في تكنولوجيا المعلومات وميادين أخرى. هذه العوالم غريبة عليَّ تماماً.

تبدأ أحداث هذه الخاتمة المختلفة في اللحظة التي تستعد فيها فرانسواز الهاربة لدخول حجرة هازيل لتخبرها بالحقيقة.

كانت ستدخل إلى حجرة هازيل عندما انقضّت عليها أياد من حديد. قادها الحراس بهدوء أعصابهم وصمتهم المعتاد إلى غرفة لونكور. ثارت فرانسواز كثيراً لإخفاقها مع أنها كانت قريبة من بلوغ هدفها، فلم تشعر بالخوف.

- مرة أخرى يا آنسة أعجب كثيراً لذكائك قدر ما أعجب لحماقتك. أعجب لكنوز المهارة التي استخدمتها في هروبك. لكن كيف لسرعة بديهة كهذه أن تكون في خدمة قضية مزعجة كهذه؟ ما الذي أعددته لربيبتي؟

- أنت تعلم.

- أريد سماعه منك.

- أن أخبرها الحقيقة: جمالها، جمالها الصارخ الذي يجعل من يراه مجنوناً.

- أو مجنونة!

- أو مجرماً. سأخبرها كل شيء، حيلتك الدنيئة وقصة أديل التي سُجنت قبلها.

- عظيم، وبعد ذلك؟

- بعد ذلك لا شيء. هذا كافٍ.

- كافٍ لأي شيء؟

- لكي تعيش أخيراً. أودّ أيضاً أن تقتلك، غير أني لا أعلم إذا كانت قادرة على ذلك. أنا أقدر، لكن هذا ليس شأني.

- بل شأنك أكثر مما هو شأنها.

- لم تقول ذلك؟

- لأنني منافسك. إذا كان هناك شخص يكرهني هنا فهو أنت، وليس هي.

- مسألة ثوان. دعني أقول لها الحقيقة. من دون شك ستنفر منك.

- هذا ممكن، ولكن من غير المرجح أن تهجرني.

- هل سيمنعها رجالك؟

- كلا، سيكون الرجوع إلى العالم جنوناً لن تقترفه.

- ليست إلا خمس سنوات من العزلة. ما زالت شابة ستتغلب على ذلك. تلك ليست عقبة. لا تتكلم عنها كما لو كنت تتكلم عن روبنسون كروزو.

- أتكلم عنها كما لو كنت أتكلم عن أوريديس. منذ خمس سنوات تتصرف كما لو كانت ميتة. تحتاج إلى قوة جبارة لتعيش من جديد.

- سوف تجدها، سأساعدها.

- وأنا؟ هل شملتني بمشاريعك؟

انفجرت ضاحكة.

- بالطبع لا، لا أهتم بمصيرك.

- تقصدين ما كان ليكون عليه مصيري، لأنني أذكرك بأن خطتك فشلت.

- لم أقل كلمتي الأخيرة.

- قبل أن تقوليها، أعرض عليك التالي. ألا تدركين حماقة بطولاتك؟ تطلّب مني الأمر كثيراً من المهارة والحذر لإنشاء هذه الجنة. أجل هذه الجنة. عندي كل شيء أريده في مورت فرونتيير، وهذا شيء جيد. سأتخلص من كل شيء لا يعجبني وهذا أفضل بكثير. أعدت خلق جنة عدن لي وحدي. تطلب ذلك كثيراً من المال لشراء الجزيرة وبناء هذا البيت الخاص جداً، بالإضافة إلى رواتب الحراس. كان أمراً ضرورياً لإشباع رغباتي غير المستحبّة في قرننا هذا المقيِّد للحريات، ولإخفاء حواء الأبدية الخاصة بي ووضعها في مخبأ بعيداً عن آلاف الأشرار الذين كانوا سيعبدونها بدلاً

مني. كفّي إذاً عن إبداء رأيك في شخص من منطلق الأخلاق الطاغية. وقيسي جدارتي على غرار بروميثيوس.

- لأنني يجب أن أعجب بك رغم ذلك كله؟

- يجب أن نعجب بالناس القادرين على أن يكونوا سعداء، عوض محاولة تحطيم سعادتهم التي بلغوها بعد كفاح مرير. ينبغي الثناء على شجاعتهم وعزمهم.

- كما ينبغي التصفيق لمشهد فتاة مسجونة!

- لو تعرفين الفتيات كما أعرفهن لأدركت أن لديهن حساً مأسوياً.

- كأنك نسيت أنني واحدة منهن.

- لم تكوني في حياتك قط فتاة محتجزة، مضطهدة ومعشوقة. لو حدث ذلك لعلمت أن العذراوات يعشقن الإخراج الدرامي النهائي.

- هذا غريب. لم تكن تتراءى لي هذه الحماقات في أحلام مراهقتي.

- صحيح أنك فتاة مميّزة على نحوٍ ما. واسمحي لي أن أبقي حديثي تلميحاً.

- لمّح ما شئت، سأتغلب عليك في آخر المطاف.

- ليكن، لكن قبل ذلك فكري. أؤكد لك أن هناك ما يستدعي التفكير.

قاد الحراس فرانسواز إلى غرفتها القرمزية. أخذوا الكتب التي ساعدتها على الهروب، وحتى الطاولة لمزيد من الاحتياطات وأقفلوا الباب من جديد.

وحيدة، لم تتمكن فرانسواز من تجاهل تلميحات القبطان. بدأت تفكر وتفكر ملياً.

عندما دخلت بعد الظهر حجرة الفتاة كان وجه هذه الأخيرة متشنجاً.

- يا لها من سحنة في اليوم الذي تكملين فيه ثلاثاً وعشرين سنة. على أي حال عيد ميلاد سعيد.

- كيف يمكن أن أفرح ولأي سبب؟ لكوني سجينة هنا حتى آخر يوم من حياتي. أو لأنني أنتظر اللحظة التي سيدخل فيها القبطان إلى فراشي وأنا أرتعش؟

- لا تفكري في ذلك!

- كيف يمكنني التفكير في شيء آخر غير ذلك؟ أسوأ من ذلك أنني رأيت الليلة حلماً عجيباً. للأسف توقف بسرعة. دخل ملاكٌ من نورٍ غرفتي وسحرني. كانت كلماته عبارة عن موسيقى سماوية حررتني من آلامي. كان على وشك أن يسرّ إليّ بسرّ كبير وسحري عندما أيقظني ضجيج خاطف من أعلى الدرج. خيم الصمت من جديد وعدت إلى النوم متمنية أن

ألحق بالحلم وهو في طريقه، لكنني لم أجده. أصابني هذا الحرمان بقنوط لم أدرك مغزاه. كيف أصف جمال ذلك الملاك البيزنطي. الحماسة الفورية التي وحّدتنا، الثمالة التي أغدقها عليَّ صوته الناعم وكلماته المُخلِّصة! لن أراه أو أسمعه أبداً. كم هي قاسية الأحلام التي تجعلنا نلمح المعجزات ثمّ تزول إلى الأبد!

تابعت هازيل قائلة: «أمس الأوّل اقترحت عليَّ نزهة رفضتها بعناد. اليوم أقبلها. حلمت بملاك في حين أن من سيأتي هذا المساء هو القبطان... يجب أن أغير الجو وتباً لمخاوفي».

- هيا بنا فوراً.

استبشرت الممرضة التي لم ترد أن تترك لها الفرصة لتغير رأيها. أمسكت بيدها واصطحبتها إلى الخارج. انتبه الحراس بعد فوات الأوان. من المفترض أن الربيبة لا تعرف أنها سجينة، وعليه، لم يكن من الممكن منعها من الخروج صراحةً.

صاحت فرانسواز فرحاً.

- أخيراً بمفردنا وحرّتين.

- حرّتان مِمَّ؟ سألت الفتاة وهي تهز كتفيها.

أسرع الرجال إلى حجرة التدخين لتنبيه لونكور إلى ما يحدث. كان القبطان، الذي لم يفته شيء من الحديث بين الشابتين، على علم بما حصل.

- انصرفوا! دعوني وشأني! قال لهم بصوت غريب.

لم يكن قادراً على رؤية الصديقتين من النافذة لأن البيت بني دون شرفات، لذلك خرج إلى عتبة حجرة التدخين وظل يراقبهما من بعيد.

ملأت عينيه دموع الغيظ.

- أود أن أدلي باعتراف لا يصدق. بدأت فرانسواز حديثها.

- ما المشكلة؟

كانتا تقفان في الموقع نفسه الذي انتحرت فيه أديل قبل عشرين سنة. أوشكت فرانسواز أن تتكلم عندما سرت قشعريرة في جسمها.

كان الرجل العجوز هناك يصرخ بكلمات تبدّدها الريح كما تبدّد الشرر.

- حمقاء! هذه الممرضة الغبية تقوّض بجملتين ما استغرقني بناؤه ثلاثين سنة. التفكير أن عنادي وحبي مرهونان

ببضع كلمات سينطقهما فم أبله! إنها الثعبان الذي يخاطب حوّائي. كيف لشيء ساذج وبضع كلمات، القدرة على تدمير جنة عدن.

- وبعد يا فرانسواز، ألن تقولي شيئاً؟

كانت تلك المرة الأولى التي ترى فيها الممرضة الربيبة في ضوء النهار القوي، إذ إن القصر الريفي كان دائماً شبه معتم. بدا وجه الفتاة إذ خرج من الظلمات صارخ الجمال. منظر إشراقة كهذه شيء فوق الاحتمال. لحظة انبهار قلبت مخططات الآنسة شافين رأساً على عقب.

- كنت أريد أن أقول إنك لا تعرفين أين تكمن سعادتك لو لم يكن القبطان لكانت مورت فرونتيير جنة في الأرض. إنها فرصة جيدة أن يكون الشخص منعزلاً عن سائر البشر.

- خصوصاً عندما يكون دميماً مثلي.

- ليس هذا فقط، أود أن أعيش معك.

- هذه أجمل هدية عيد ميلاد يمكن أن تقدميها لي.

شاهد لونكور من بعيد الربيبة وهي تعبّر عن حماستها بحركات. قال في سره: لقد ضاع كل شيء، إنها تعرف الآن.

لم يعد العالم يرغب فيه. أحس كأن سفينة حياته قد أبحرت، وكما في حلم لا نقدر أن نميز إن كان رائعاً أو فظيعاً، سار نحو الشابتين. كان ذلك في نهاية شهر مارس وما زال الضوء الباهر ضوء فصل الشتاء على شاطئ البحر. أبسبب ذلك اللمعان الباهت بدا له خيال الامرأتين بعيداً؟

كان يسير دون هدف. تذكر كلمات حكيم أثيوبي التقاه قبل عشرين سنة أثناء توقفه في ميناء إفريقي «الحب هو قضية المشائين الكبار». أدرك الآن صحة هذه الجملة الصائبة. كان يمشي نحو الحبيبة وكل خطوة ترهقه كأنها اختبار ميتافيزيقي. المشي يعني رفع قدم ثم إنزالها ثم تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة. «عندما سأصبح أمامهما لن أتمالك نفسي. سأنهار!». اعتصر القلق صدره.

- ها هو القبطان قادم. قالت الممرضة.

- ماذا أصابه؟ إنه يترنح كمريض.

عندما لحق بالمرأتين رأى وجه هازيل المشرق.

- هل قلت لها. . . ؟ سأل فرانسواز.

- أجل. أجابت بكذب سادي.

التفت لونكور نحو الفتاة مذهولاً.

- لا تحقدي عليَّ، حاولي أن تفهمي رغم أنه شيء لا يبرر، ولا تنسي أني أحبك كما لم يحب إنسان من قبل.

جرى إلى نهاية كومة الحجارة التي تشير إلى مكان انتحار أديل وألقى بنفسه في الماء.

بالنسبة لسباح ماهر حتى لو كان في السابعة والسبعين يُعد الاستسلام للغرق تمريناً فكرياً أكثر منه جسدياً.

«أن لا أسبح. أن لا أحرك اليدين والساقين. أن لا أرفع أنفي في اتجاه السطح. أظل ثقيلاً وساكناً. خنق شهوة العيش وغريزة البقاء البلهاء. أديل، أعرف أخيراً ما تعرفين. لم يمر يوم منذ عشرين سنة دون أن أفكر في غرقك. كنت أتساءل كيف كان من الممكن أن تُغْرقي نفسك. كيف يمكن للماء، وهو أكبر صديق للأحياء، أن يقتل؟ كيف أصبح جسد خفيف كجسدك أثقل من هذا الجحيم السائل المرعب؟ الآن، استشف منطق اختيار هذه الميتة. الماء والحب مهد كل حياة. ليس هناك ما هو أكثر خصوبة. الموت حباً أو الموت بواسطة الماء. أفضل من كل ذلك الموت بواسطتهما معاً، أي الرجوع إلى نقطة الانطلاق، أي اعتبار باب الدخول كباب الخروج. أن نقتل أنفسنا بالحياة نفسها».

أخذت هازيل تصيح بقوة. أمسكت بها فرانسواز من يديها. لم يظهر رأس العجوز إلى السطح ولو مرة واحدة.

- لقد مات. خلصت الربيبة إلى القول مذهولة.

- بالتأكيد، فهو لم يكن حيواناً برمائياً.

- لقد انتحر! استنكرت الفتاة قائلة.

- ملاحظة في محلها.

انفجرت الصغرى باكية.

- هيا! هيا! لقد عاش العجوز حياته.

- كنت أحبه!

- لا تبالغي. كنت تمرضين لمجرّد التفكير في أنه سيمسّك الليلة.

- هذا لا يعني أنني لم أحبّه.

- كفى! حسناً. كنت تحبينه. من الطبيعي أن يموت قبلك بسبب فارق السن.

- أقسم إنك مبتهجة.

- لا يفوتك شيء.

- هل كنت تكرهينه؟

- أجل، انتحاره أجمل هدية عيد ميلاد.

- لكن لماذا قتل نفسه؟

- من يدري ما يدور في ذهن الأشخاص المسنين. قالت فرانسواز مبتسمة لفكرة نجاحها في تنفيذ الجريمة المثالية.

- وهذه العبارات التي قالها قبل أن يرمي نفسه في الماء كانت لتبرير عمله؟

- بالتأكيد. الكبرى كاذبة.

- يشعر الأشخاص الذين يقتلون أنفسهم دوماً بضرورة إيجاد مبرر كأنّ للأمر جدوى.

- كم أنت قاسية ووقحة. كان هذا الرجل وليّ نعمتي.

- وليّ نعمة استغل ربيبه.

- استغل! يبدو أنك تغفلين أنني مشوهة.

- يستحيل أن أنسى. لكن المرء يتعود على دمامتك. قالت الممرضة وهي تتأمل وجه هازيل الرائع.

دخلتا إلى القصر واحدة دامعة العين والأخرى فرحة لقتلها عدوها بفعل سوء تفاهم مدبّر.

بينما كانت هازيل تبكي على سريرها قامت فرانسواز بالاستعلام عن مصالح لونكور التي يديرها موثق عقوده في تانش. اتصلت به هاتفياً وعلمت أن القبطان قد اختارها كمنفذة للوصية وبأن الصغرى موصى لها بكل أموال لونكور.

«هذا فقيد مثالي» قالت الآنسة شافين في سرها.

عند الانتهاء من كل الإجراءات المملة قامت الممرضة باستشارة الفتاة.

- أنت تملكين ثروة ضخمة، ما الذي ترغبين في عمله؟

- المكوث في مورت فرونتيير لإخفاء وجهي البشع.

- قبل وقت قصير من موت القبطان، كنت أقول لك إنني أود العيش معك. هل ما زلت تسمحين بذلك؟

أشرق وجه هازيل.

- لا أجرؤ على تمني ذلك؟ هذه أغلى أمنياتي.

- هذا لطف بالغ من قِبلك.

- لكن هل يمكن أن أقبل تضحية كهذه؟ فتاة جميلة مثلك يمكنها أن تخالط الناس.

- لا رغبة لي في ذلك.

- لِمَ؟

أجابت فرانسواز وهي تضمّ الفتاة الرائعة بين ذراعيها.

- أنت أكثر أهمية من الناس. قالت فرانسواز.

أجرت تعديلات جذرية، ولكن تدريجاً. لم تطرد الآنسة شافين أحداً. على أي حال، يمكن للحراس عمل شيء ما على الأقل لصرف فائض المال الذي لا نحتاج إليه في الجزيرة. سيقوم كبير الخدم وجاكلين كعادتهما بالأعمال المنزلية والطبخ.

انتقلت فرانسواز من الحجرة القرمزية إلى غرفة القبطان. فأحياناً لا يُنالُ السلطانُ إلا بعد سجن. لم يفكر أحد في مناقشة سلطتها.

كانت تذهب أحياناً إلى نو حيث يعتقد أغلبية الناس أنها أرملة القبطان. تشتري من هناك الكتب النادرة والزهور والعطور وفي رفقتها حارسان لحمل الحاجيات.

لم تكن تفوت فرصة التعريج على الصيدلية لتغيظ الواشي. كانت تطلب منه كل مرة بابتسامة عذبة ميزان حرارة «ذكرى الزمن الطيب القديم» تقول موضحة. يجد الصيدلي صعوبة في الحفاظ على هدوء أعصابه.

عند رجوعها إلى مورت فرونتيير تدخل حجرة هازيل وتقدّم لها زهور الزنبق البيضاء وهدايا أخرى اختارتها لها. تبتهج الفتاة. منذ أن حلت الممرضة محل الوصي أصبحت في غاية السعادة.

- ليس مهماً أن أكون دميمة. كانت تقول دوماً للمرأة الشابة. لم يكن الجمال سيوفر لي فرصة سعيدة للعيش معك.

كانت في الواقع تزداد جمالاً يوماً بعد يوم لتغدو فتنةً للناظر إليها.

بمضي عشرين سنة اندلعت حرب. بالكاد لاحظتها أو اهتمت بها قاطنتا مورت فرونتيير.

حين اقترب الحلفاء من هناك تذمرتا قليلاً:

- نأمل أن ينتهي الأمر بسرعة. إنهم أناس صاخبون.

في 2 مارس 1973 جاءت الآنسة شافين لتجلس على حافة سرير الآنسة لونغلير وقالت لها:

- يصادف اليوم مرور خمسين سنة على لقائنا.

- حقّاً؟

- أجل، لم نعد شابتين كما كنا.

انفجرتا ضاحكتين. استرجعتا عدد الطباخات اللاتي عملن لديهما. جاكلين ثم أوديت ثم بيرت ثم ماريت، ثم تيريز. كان كل اسم يثير لديهما دفعة جديدة من الضحك.

- هل لاحظت! لم تتحمل أي منهنّ البقاء أكثر من عشر سنين. قالت الكبرى.

- هل كنا نهمتين إلى هذا الحد؟ أم كنا حقّاً قاسيتين. انفجرت الصغرى ضاحكة.

- أنا وحش!

- أنت؟ هيا يا فرانسواز. أنت قديسة! لقد ضحيت بحياتك كلها من أجلي! لو كان هناك جنة فستكون أبوابها مشرعة لك.

خيم صمت. رسمت الممرضة السابقة ابتسامة غريبة على شفتيها قبل أن تتكلم أخيراً:

- الآن، هازيل يمكن أن أحكي لك كل شيء.

روت لها القصة منذ الحريق في غوادلوبي. بقيت هازيل جامدة في مكانها. وكنوع من المواساة قالت لها الأخرى «لا تعذبي نفسك. لم يبق شيء من وجهك اليوم.»

- قولي، أخبريني... كيف كنت؟

- لا يمكن التعبير عن ذلك بالكلام. كنت رائعة الجمال إلى درجة أني لم أخجل لحظة من جريمتي. واعلمي أن ما من جمالٍ حظيَ بمثل الرعاية التي حظي بها جمالُك. والسبب حياتنا السعيدة في الجزيرة. لم أفقد ملمحاً من وجهك.

خيم صمت طويل. بدت الصغرى تائهة.

- أتحقدين عليَّ كثيراً؟ سألت الكبرى.

التفتت إليها هازيل بنظرتها الرائعة.

- على العكس. لو كشفت لي ذلك منذ خمسين سنة لما قاومت اختبار العالم الخارجي، ومن دون شك كنت لأقع بين أيدٍ ليست بمثل طيبة يديك؟ كنت لأكابد الآلام التي يسببها الزمن والبشر للجمال. لم أكن لأعرف قط الحياة المثالية التي حُبِيتُ بها.

- بل التي منحتني أنت إياها. إنه مالك أنت.

- لم يكن سيوظف بشكل أفضل.

- باختصار أنت تعترفين لي بالجميل.

- يبدو أن هذا يخيب ظنك. هل ستنكرين أنني وحش!

- بالتأكيد لا. لكن هل يمكن أن يحدث لفتاة جميلة أفضل من لقائها وحشاً.

ابتسمت فرانسواز. كانت تخفي وراء ظهرها زهرة زنبق بيضاء قدمتها لهازيل.

آميلي نوثومب

زئبق

شهقت الممرضة عندما رأت وجه هازل، كانت الصدمة قويّة جداً.

ما عاد بإمكانها أن تغض الطرف عما يحصل في هذه الجزيرة المعزولة. لقد قررت كشف أسرار ما يحصل بين القبطان وربيبته، ومعرفة الأسباب التي جعلت شابة مثل هازيل ترضى بالعيش في هذه العزلة المحاطة بأقصى درجات السرية مع رجل تجاوز السبعين من عمره

علاقة إنسانية مؤثرة بين الممرضة وهازيل، دفعت الممرضة لمواجهة مخاطر كبيرة في سبيل إنقاذ الفتاة الشابة.

إنها رواية مفاجئة في حبكتها وفي نهايتها.

لقد بلغت آميلي نوتومب مكانة مميزة بين الكتاب الأكثر مبيعاً بسرعة، وينتظر القراء أعمالها بشغف.

في هذه الرواية تسرد لنا نوتومب ظروف حياة فتاة تُحتجز من طرف رجل كبير السن في جزيرة معزولة، عن طريق زرع وهم لديها عن حالتها غير المحتملة، وعن كونه حاميها، قد وفر لها هذه العزلة، لكي لا تضطر لمواجهة البشر.

إنها دراما إنسانية مؤثرة.

آميلي نوتومب، الكاتبة "السوبر ستار" اليوم، تؤكد حضورها القوي ككاتبة ينتظر القراء صدور أعمالها. وهي في أعمالها تحمل مفاجآت لقرائها، إذ تكتب بطريقة خاصة جداً، وأيضاً تختار موضوعات مفاجئة.

هكذا هي أيضاً في هذه الرواية، مرهفة المشاعر، ومفاجئة.

هذه ترجمة لرواية:
Amélie Nothomb
Mercure

علي مولا

ISBN 978-9953-68-259-3
9 789953 682594

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 22 212+ فاكس: 305726 22 212+
بيروت: ص.ب: 113/5158
هاتف: 750507 1 961+ فاكس: 343701 1 961+
markaz@wanadoo.net.ma cca_casa_bey@yahoo.com